المشروع القومى للترجمة

غرفة تخص المرء وحده

تأليف

فرچينيا وولف

ترجمة

سمية رمضان

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

A ROOM OF ONE'S OWN

VIRGINIA WOOLF

«فلنتخيل أنه كان لشكسبير أخت ، وأنها كان لها من الموهبة مثله تماما ، ولكن أحداً لم يبعث بها إلى المدرسة ، ولم تواتها فرصة تعلم النحو والصرف والمنطق ، وقبل أن تغادر سنى المراهقة خطبت ، وتوسلت ، وبكت ، وزعقت ؛ إذ إنها تفضل أن يضربها أبوها عن أن تتزوج الآن . وهربت إلى لندن ، ووقفت أمام باب المسرح ؛ كانت تريد التمثيل ، ولكنهم ضحكوا فى وجهها ؛ وأخيراً أشفق عليها نيك جرين مدير الفرقة ؛ فوجدت نفسها حاملاً منه ؛ فانتحرت ذات ليلة شتاء» .

فى عام 1928 قرأت فرچينيا وولف بحثين على طالبات جامعة كامبريدج . كان هدفها هو أن تشركهن فى الأفكار والتأملات التى ساقتها إلى نتيجة بسيطة هى «أنه إذا أرادت امرأة أن تكتب الأدب فيجب أن تكون لها غرفة تخصها وحدها وبعض المال» ؛ فكان هذا الكتاب .

كتاب يشع برهافة الحس والشاعرية ، وتغذيه روح دعابة ذكية ، وسخرية مثقفة بارعة .

الغلاف : عماد حلي

فرجينيا وولف

هذه ترجمة عن الإنجليزية لكتاب

A Room of One's Own

by

Virginia Woolf

مقـدمة

فرجينيا وولف

ولدت فرجينيا وولف فى يناير عام ١٨٨٢ لأسرة مرموقة فى حى راق فى لندن . وكان أبوها السير ليزلى ستيفن هو محرر «معجم السير القومية» فى ثلاث وستين مجلداً ، وتلقى على جهده هذا الدكتوراه الفخرية من جامعة أكسفورد فى الآداب عام ١٩٠١ ، أما أمها فتوفيت مبكراً فى عام ١٨٩٥ . عرفت الأسرة بحبها للفنون وولعها بالنقاش والمساجلة الفكرية . وفى حين تلقت أخت فرجينيا الكبرى ڤانيسا تعليمها فى الرسم فى مدارس الأكاديمية الملكية ، ودرس أخواها أدريان وثوبى القانون فى الجامعة كان تعليم فرجينيا متقطعاً بسبب فترات الانهيار التى عانت منها منذ مراهقتها المبكرة . إلا أنها حضرت دروس اللاتينية واليونانية فى كلية الملك فى لندن وتلقت الدروس كذلك على أيدى المدرسين الخصوصيين . كانت تعشق الكلمات وتدون الكثير مما كان يحدث فى دائرتها وهى بعد صغيرة . كما بدأت فى إصدار نشرة كان يساعد فى تحريرها إخوتها من محل إقامتهم فى هايد بارك جيت . بعد وفاة الأب عام ١٩٠٤ انتقل الأخوة الأربع إلى منزل فى ٤٦ ميدان غوردن ، بحى بلومبزبرى وهو المكان الذى أعطى اسمه لما أصبح يعرف بحلقة بلومبزبرى الشهيرة ، التى انتظمت آنذاك فى أمسيات الخميس إلى أن تزوجت ڤانيسا وانتقلت فرجينيا إلى ميدان فيتزروى . كانت فرجينيا قد بدأت فى ذلك الوقت فى نشر مقالاتها فى صحيفة الجارديان اللندنية الشهيرة ، واندرجت فى نشاط حركة حق التصويت للمرأة فى عام ١٩١٠ . فى عام ١٩١٢ تزوجت فرجينيا من ليونارد وولف واتسمت حياتهما معاً بالنشاط الأدبى والثقافى والاجتماعى وكان من بين المشاهير الذين عقدوا معهما الصداقات جورج برنارد شو وتوماس هاردى وألدوس هاكسلى وليتون ستراتشى وروجر فراى الذى كتبت فرجينيا سيرة لحياته ، وكذلك روبرت بروك الشاعر وكينز الاقتصادى وبالطبع ت . س . إليوت الذى نشرت أشعاره فى مطبعة هوجارث التى أسسها الزوجان وبدأت عملها عام ١٩١٧ .

كانت حياة صاخبة ، يحضران فيها مؤتمرات التعاونيات النسوية ، واجتماعات الجمعية الفابية ، يذهبان إلى المسرح والأوبرا ، ويزوران الأصدقاء . وكان ذلك يرهق فرجينيا من حين لآخر . ولم يمنع حدب زوجها واهتمامه الذى بدأ يكتب سجلاً يومياً بحالتها الصحية وكان من الوعى الكافى لأن يسأل الطبيب فى أول زواجهما فيما إذا كان من الحكمة أن تنجب فرجينيا أطفالاً ، لم يمنع ذلك الحدب انهيارات فرجينيا

المتعددة . وفى يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٤١ كتبت فرچينيا وولف لزوجها ليونارد خطاباً قصيراً قالت فيه : « يا أعز الناس ، أنا واثقة أننى سأجن مرة أخرى ، وأشعر أننا لا نستطيع أن نعانى مجدداً شيئاً من تلك الأوقات الفظيعة . لن أشفى هذه المرة . بدأت أسمع الأصوات ولا أستطيع التركيز {...} لقد منحتنى أعظم سعادة ، وكنت دائماً الشخص الأمثل من جميع الجوانب {...} لا أستطيع المقاومة بعد الآن . أنا أعرف أننى أفسد عليك حياتك ، ولكنى أعرف أنك ستستطيع العمل بدونى {...} لقد زايلنى كل شئ إلا الثقة بطيبتك . لا أستطيع الاستمرار فى أفساد حياتك بعد الآن »(*) .

ثم تركت منزلها (مونكس هاوس) فى رودمل بمقاطعة ساسكس وقطعت الحقول إلى أن وصلت إلى شاطئ نهر أوس (Ouse) فوضعت حجراً كبيراً فى جيب معطفها وألقت بنفسها فى الماء .

انتحرت فرچينيا وولف وهى فى التاسعة والخمسين وكان صراعها مع ما كانت تسميه «الجنون» قد بدأ وهى فى الثالثة عشرة ، وقد اتفق الأطباء معها وقتها على هذا الوصف للنوبات التى كانت تعتريها بحدة ، تسعد وتخفت وتتسم بعدم القدرة على النوم والأكل والتركيز وفقدان الثقة التام فى النفس . «لقد فقدت كل قدرتى على صياغة الكلمات . لا أستطيع أن أفعل أى شئ بالكلمات» ، كتبت يوماً لطبيبتها :

> « ولكنى لم أعطك أدنى فكرة عن الأمواج العالية المهولة التى تحملنى إلى أعلى القمم ثم تهوى بى إلى وديان جهنمية سحيقة فى غضون أيام »(**) .

كانت تصف ما يعرفه الأطباء النفسانيون اليوم بجنون الهوس الاكتئابى ، «مرض الشعراء والكتاب» كما يقول أحد المراجع .

ولكنها وعلى الرغم من كل المعاناة تركت لنا بعض من أجمل ما كتب فى الإنجليزية فى القرن العشرين .

كلنا يذكر مسز والاوى وأبى الفنار والأمواج وغرفة يعقوب ؛ ومازال النقاد وطلاب الأدب يعتبرون رواياتها ومقالاتها منجماً يمارسون فيه حذقهم وذكاءهم وقوة حجتهم ، إلى جانب هواية بعضهم فى التحليل النفسى .

(*) عن كوينتين بل . ترجمة عطا عبد الوهاب . فرچينيا وولف : سيرة حياة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت : ١٩٩٣ . صـ ٦٩٢ .

(**) الخطابات ، المجلد ٣ . صـ ٢٣٧ عن / http : //our world. compuserve. com / hompages / malcolmi / vwfinis. htm

هذا الكتاب :

يعد كتاب فرچينيا وولف «غرفة تخص المرء وحده» ، (A Room of One's Own) بمثابة مانيفستو الحركة النقدية النسوية فى القرن العشرين . وهى الحركة التى وصلت أوجها فى السبعينيات وضمت أسماء مثل كيت ميلليت ، چرمين جرير ، ماريلين فرنش وأليس چاردين ، وتبرز فيها الآن أسماء مثل چوليا كرستيفا وهيلين سيكسو .

بدأت أدبيات تلك الحركة تتراكم ببطء منذ نهايات القرن الثامن عشر حيث تواكبت مع أفكار الثورة الفرنسية فى أوروبا ومع حركة تحرير العبيد فى أمريكا ، أما فى بلادنا فكان ظهورها محايثاً لحركة التحرر من الاستعمار .

وربما كان باستطاعتنا أن نعين نصاً بعينه كان من المباشرة بحيث إنه أصبح إشارة البدء لتلك الأدبيات التى التفتت إلى نوع من الظلم يقع على النساء لمجرد أنهن نساء ، هذا النص هو دفاع مارى ولستون كرافت جودوين(*) النارى عن حقوق المرأة فى التعليم(**) ونشر عام ١٧٩٢ أى قبل أن ينشر چون ستيوارت ميل كتابه «قهر النساء» (The Subjection of Women) بما يزيد على السبعين سنة ، ومع هذا يظل كتاب ميل المرجع الأول للكثيرين فى تأريخهم لأدبيات تلك الحركة فى أوروبا والتى تطورت كثيراً عن بداياتها الأولى فى «المطالبة بحقوق» مبدئية مثل حق التعليم والتصويت فى الانتخابات .. إلخ ، حتى تشعبت منذ السبعينات من القرن العشرين لتؤثر على نحو واضح فى مناهج البحث الحديث فى شتى المجالات : الأدب والتاريخ والفلسفة وعلوم الاجتماع والأنثربولوچيا وعلم النفس ، مؤسسة لوجهة نظر مغايرة فى تلك المجالات تعتمد على التنقيب فى الظروف ، والبحث فى الإنجازات والتأريخ للحقب ولحيوات النساء ، لا بهدف «مراجعة» التقييم الذى ظفرت به أو لم تظفر به النساء ، فحسب بغرض إبراز الدور الذى لعبته فى صناعة الحضارة والثقافة فحسب وظل مهمشاً ومعتماً لحقب طويلة ولكن ، وهذا هو الأهم ، بهدف طرح رؤية جديدة من خلال البحث العلمى الجاد التاريخى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والأدبى، وحتى الطبى ، تأخذ بعين الاعتبار تأثير علاقات الأنوثة والذكورة [الجنوسة] فى صياغة

(*) مارى ولستون كرافت جودوين ١٧٧٩ - ١٨٩١ زوجة الفيلسوف والروائى الإنجليزى الموالى للثورة الفرنسية وليام جودوين وأم مارى الزوجة الثانية للشاعر الرومانسى شيللى التى عرفت بابتداعها شخصية فرانكشتاين فى الرواية التى تحمل هذا الاسم .

(**) الكتاب بعنوان دفاعا عن حقوق النساء A Vindication of the Rights of Women .

المعرفة(*) ، مما يترتب عليه استعادة الحقائق التى كان يهمشها ، إن لم يطمسها منهج البحث التقليدى المنتمى إلى منظومة قيم كانت تعتبر أن وأد فرص التعبير والإفصاح عن الذات بالنسبة للنساء متطلباً «لاستمرار الأمور على ما هى عليه» وهى ذات المنظومة التى تطلبت التضحية بأعداد كبيرة من الجنس البشرى عبر تاريخها : العبيد بداية ،ثم أبناء وبنات عالم الأغلبية(**) وشملت النساء فى عالم الأقلية - مكتمل النمو. وربما فسر ذلك اختلاف مواضيع البحث وتباينها ، تلك التى تتوجه إليها النساء المهتمات طبقاً لاختلاف ظروفهن الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والثقافية وإن ظل التوجه الأصلى والمنطلق الأساسى واحداً كما سبق وأشرنا . من هنا كانت أهمية كتاب فرچينيا وولف «غرفة تخص المرء وحده» . فالكتاب على صغر حجمه وبساطة الرسالة التى يحملها ، والتى كثيراً ما اختزلت فى جملة واحدة تقول : إذا أرادت امرأة الكتابة فيجب أن تكون لها غرفة ودخل منتظم مهما كان ضئيلاً ! إلا أن تلك النتيجة البسيطة والتى تنطبق على كل مبدع أياً كان جنسه، توصلها فرچينيا وولف فى حالة النساء تأصيلاً مرهفاً إلى أبعد حد ، وبنفاذ بصيرة فائق عبر ما يزيد عن المائة الصفحة ، متملية متفحصة ، وفى الأساس متسائلة ، عن المعوقات والتوقعات والظروف الاجتماعية التاريخية التى أقعدت وأحبطت جهود النساء فى إثبات ذواتهن والإفصاح عن رؤيتهن للعالم . من خلال هذا الجهد المتأنى فى طرح المسألة الذى استخدمت فيه فرچينيا وولف أسلوباً تعارفنا على تسميته فى العربية «بتيار الوعى» لايتكشف لنا فقط كم التعسف والظلم الذى وقع على النساء ، وإنما الأسباب التى أعاقت جهودهن فى درء الظلم ومدى الجهل الذى أحاط بحيوات النساء والتعتيم الذى عانت منه إنجازاتهن ، مما كرس بفكرة دونية المرأة وعدم صلاحيتها للأعمال التى تتطلب الهمة والدأب الفكرى أو «العبقرية» . كيف كانت حياة النساء فى إنجلترا قبل القرن الثامن عشر ؟ تتسائل . لماذا لم تستطع أمهاتنا جمع ثروة تكفى لبناء الكليات للبنات على غرار ما كان يفعل الآباء للأبناء ؟!

هل هناك أسلوبٌ فى الكتابة تختص به المرأة ؟!

(*) أدين لصياغة المسألة على هذا النحو لملف مجلة ألف ، العدد التاسع عشر ١٩٩٩ بعنوان «الجنوسة وصياغة المعرفة» والذى أصّل لكلمة (gender) بتعبير «الجنوسة» فى عنوانه وهو تعبير يحيل إلى فكرة التشكل الثقافى والاجتماعى للجنس ظل قيد النقاش فترة طويلة ، وترجم على نواح شتى وفقاً لسياق المقال واقتبس حرفياً فى بعض البلاد فيكتب هكذا : «چندر» .

(**) عالم الأغلبية تعبير سمعته أول مرة من فدوى فقير (الروائية والناقدة وأستاذة دراسات الجنوسة فى جامعة دارهام بإنجلترا) وكان ذلك فى مؤتمر فى الجامعة اللبنانية فى بيروت بداية عام ٩٩ ، ويقصد به «العالم الثالث» .

. ما معيار الكتابة الجيدة فى حالة المرأة التى تستخدم الكتابة للتعبير عن الظلم الذى تشعر أنه واقع عليها ؟

ما العلاقة بين الكتابة والجنون ؟ هل هناك قيم أنثوية وأخرى ذكورية ؟ وأسئلة أخرى كثيرة .

لقد طرحت فرجينيا وولف فى غضون المائة صفحة مجمل الأسئلة التى قامت عليها حركة لاتنتهى من البحث فى تاريخ النساء، وخصوصية كتاباتهن ، ومظاهر مقاومتهن ، ماهية الضغوط الواقعة عليهن . ولا تزال تساؤلاتها وتوصيفها لمعوقات البحث فى تلك المجالات تلهم الكثيرين والكثيرات بالكشف المتأنى والجهد الموضوعى ، لا فى مجال النقد الأدبى فقط كما قد يتراءى للبعض ، ولكن فى التاريخ الثقافى ، والعلوم الاجتماعية ، وحتى الطب كما سبق وأشرنا .

أما أهمية أن يجد هذا الكتاب سبيله إلى القارئة والقارئ العربى فلأنه فى رأيى كفيل بتقديم مسألة «النقد النسوى» وأفكار «الحركة النسوية» المبدئية التى قامت على أسسها الدراسات الحديثة المهتمة بأدوار النساء ، وكيفية تشكل مفاهيم الذكورة والأنوثة ، اجتماعياً ، فى سياقاتها التاريخية واختلافها عبر الحقب المختلفة . كذلك ما يمثله ذلك الاختلاف فى المجتمع الواحد عبر تاريخه أو بالمقارنة مع مجتمعات أخرى فى الحقبة نفسها من خلال دراسات الجنوسة التى يشمل مداها مجالات المعرفة المختلفة على تباينها . والجنوسة لاتهم النساء فقط ، ولكن كل من يبحث عن طريق «ثالث» ، يود العثور على قيم جديدة ، لا تقوم على ثنائيات العبد والسيد – القاهر والمقهور . ولكن لأن المرء عليه أن يبدأ من مكان ما، بدأت فرجينيا وولف بجنسها . ولنذكر ما قاله الروائى المصرى علاء خالد فى روايته «خطوط الضعف» : «إن لكل منا منطقة اضطهاد ينطلق منها» .

ولكن هذا لا يعنى أن يحصرنا تاريخ الاضطهاد فى ردود أفعال تحنط علاقتنا بالواقع متزايد السرعة فى تحولاته ، أو تنتقص من قدرتنا على الإسهام فى دفع أفق حرياتنا ، وهو الأفق الذى لا يتسع إلا بمزيد من المعرفة . وقد أثبتت النسويات المصريات والعربيات أنهن على مستوى هذه المسئولية حين دأبن على الدرس والبحث ، لا فى ظروف النساء الراهنة فقط فى الوطن العربى ولكن فى ربطهن لتلك الظروف بتاريخ الوطن واقتفاء أثرها فى مصادرها التاريخية ، والتوجه بأسئلة أبحاثهن إلى المواقع التى تشكلت فيها نواة الظرف الراهن . ومنها على سبيل المثال الدراسات العديدة التى توجهت إلى مسألة النساء من خلال خطاب الحداثة واشتباكه مع الكولونيالية وتأثير ذلك على وضع النساء الراهن . ومنها أيضا إبراز حيوات النساء

المنسيات فى تاريخ الأمة على نحو يدرس الشخصية فى سياقاتها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية ، وبذا يساهمن فى كتابة التاريخ الثقافى الذى مازال مهملاً ، إلى حد بعيد ، فى الدراسات الأكاديمية : وبذا تثبت الباحثات النسويات العربيات والمصريات اليوم أن إرهاصات الحركة الأولى التى بدأت فى نهاية القرن التاسع عشر، ووصلت أوجها بجهود هدى شعراوى وسيزانبراوى وأخريات، فى بدايات القرن العشرين ، ثم اتسمت بالراديكالية حين كانت سمة من سمات عقد الستينيات فى العالم بأسره وتركت لنا أسماء كان لها دور فعال فى إذكاء وعى الجيل مثل نوال السعداوى ودرية شفيق – أقول أثبتت باحثات اليوم ، ومازلن ، أن الحركة النسوية مازالت فعالة ، وأنها تتجه الآن بخطى حثيثة نحو دراسة منظومة القيم التى تعوق ممارسة الكثير من الحقوق التى ناضلت من أجلها ونالتها بالفعل النساء ، ولا سيما فى مصر .

الترجمة :

قد يبدو للكثيرين أن ترجمة عنوان فرجينيا وولف (A Room of One's Own) إلى «غرفة تخص المرء وحده» لا يستشف منه أن المقصود هو غرفة خاصة بامرأة . لكنى أدافع عن هذه الترجمة لأنها فى رأى تحوى الصرامة نفسها التى للعبارة الإنجليزية وتنقل حس الغموض نفسه عن مضمون الكتاب . فلو قلنا «غرفة تخص المرأة وحدها» مثلاً ، أزلنا عن العنوان الأصلى الإحالة إلى الكاتبة التى يحويها العنوان الإنجليزى ، الذى من الممكن تفسيره فى سياقه إلى «غرفة تخصنى وحدى» ، ويكون مفروغا منه فى تلك الحالة أن الغرفة تخص فرجينيا وولف . ولكن وولف بالتأكيد قصدت الالتباس أو على الأقل التعميم الذى تحمله كلمة «المرء» (One) ، لا لأنها لم تكن تتحدث عن نفسها فلا تستطيع استخدام مشتقات ضمير الأنا بالإنجليزية ؛ ولكن الكتاب فى مجمله قائم على خلق علاقة متوهمة بين «امرء» هو فى النص امرأة تتحدث بضمير الأنا فى أحيان كثيرة ونساء أخريات تريد تلك المرأة نقل مشاعرها وأفكارها إليهن ، فى موضوع «النساء والكتابة» ، على نحو حقيقى وطازج ، فكان أن ابتدعت تلك الصياغة العبقرية لأطروحتها واتبعت المنهج «الذاتى» لأسباب ، منها : أنها كانت تدرك أنها مضطرة لاستحداث تراث فى مواجهة تراث آخر طويل راسخ كان يقدر إنجازات جنس دون آخر ، ويشجع إنجازات جنس دون آخر .. إلخ . وهكذا جاءت كلمة (One) معبرة عن المتحدث والمتحدث إليه فى آن ؛ أى انتهجت نهجاً ذاتياً للتعبير عن قضية موضوعية ليس لها ما يعضدها فى تراث الكتابة .

وقد فكرت كثيراً فى حذف كلمة «تخص» من العنوان على اعتبار أسلوب اللغة العربية الذى يضيف «اللام» إلى الاسم فى حالة الملكية ليكون العنوان كالتالى

«غرفةٌ للمرء وحده» . وبالرغم من سلامة هذا التعبير لغوياً فإننى فضلت استخدام الصياغة العامية : «غرفة تخص المرء وحده» تأكيداً على معنى الخصوصية التى يركز عليها الكتاب .

كلمة «المرء» العربية هى المرادف التام لكلمة (One) الإنجليزية فى هذا السياق . وعلى الرغم من أن كلمة «امرأة» كما سيتبدى من تعريف لسان العرب ، مشتقة من «مرء» فإنه لا يسعنا مع هذا استخدام كلمة «المرأة» لأن ڤرچينيا وولف كان بإمكانها أن تستخدم Woman بدلاً من One .

«المرء» وفقاً للسان العرب هو الإنسان

«تقول هذا مَرْءٌ وكذلك فى النصب والخفض تفتح المُيم هذا هو القياس [...] وقد ورد فى خديث الحسن : أحسنوا مَلاكُمْ أيها المرْءون . قال ابن الأثير : هو جمع المرء وهو الرجل ومنه قول رؤبة لطائفة رآهم : أينَ يُريد المَرْءون ؟ وقد أنثوا فقالوا : مَرأةٌ وخففوا التخفيف القياسى فقالوا مَرَةٌ بترك الهمز وفتح الراء وهذا مطرّد»(*) .

أى أنهم حين أنثوا فى حالة الإنسان لم يجمعوا ، وهى مشكلة لا تختص بها اللغة العربية بأى حال ، ولكن رجبت الإشارة مع اعتبار أصول اللغة العربية على انحيازاتها التى لا يد لى فيها .

فقد حاولت بقدر المستطاع فى النص بأسره أن أتوخى كل الحرص فى الالتزام بالجملة الإنجليزية ، إلا بالطبع فى الحالات التى كانت الترجمة شبه الحرفية تخل بالمعنى . فالنص الإنجليزى مجذر فى ثقافته على نحو واضح وتكاد إحالاته أن تكون «إقليمية» تماماً فى حدودها . فى مثل تلك الحالات لجأت إلى تعريف هامشى . فكلمة «بيدل» مثلا تظهر فى النص بحروفها العربية وترجمتها الأقرب (حارس) بين أقواس فى الفقرة ، وتحمل إشارة هامشية توصيفية لتلك الوظيفة . كذلك ، حاولت ألاّ أدرج الكلمات الإنجليزية بالحروف اللاتينية بين أقواس فى متن النص كما نفعل فى العادة للتنويه عن عدم وفاء الترجمة بالمراد ، وكان ذلك لحرصى على السيولة البصرية فى المطالعة ، إلا فى حالة نادرة تخص بالذات أسماء الكتب التى يشير إليها النص ولم تترجم إلى العربية أو لم يتناهى إلى علمى أنها ترجمت .

أما عن نظام الإحالات والتعليقات فقط احتفظت بأرقام المؤلفة وأشرت إلى إحالاتى باستخدام العلامة(*) طوال الكتاب .

(*) لسان العرب لابن منظور المصرى صـ ٤١٦٦ طبعة دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩ .

لقد مثل الأسلوب الذى اتبعته فرجينيا وولف ويندرج تحت تقنيات «تيـار الوعـى» ، كما مثل بناء جملتها التى صاغتها فى الأعم مبنية للمجهول تحدياً لى فى الترجمة لا أنكره . وأملى أن يكون جهدى علىّ تواضعه مستحسنا على نحو عام لدى قراء وقارئات هذا الكتاب .

ملحوظة أخيرة ولكنها غاية فى الأهمية . يبدأ النص الانجليزى بكلمة "But" أى «ولكن» وقد يتسبب ذلك فى التصور أن هنالك ما قبل تلك الكلمة فى الكتاب . هذا ليس صحيحاً . وفرجينيا وولف تستخدم هذه اللفظة فى بداية كتابها لإرساء الأسلوب الذى ستستخدمه طيلة النص وهو أسلوب «تيار الوعى» كما سبق وأشرنا . يُذكر فى هذا الصدد أن كتب تعليم اللغة (الإنجليزية) ، لمن ينطقون بها ، بوصفها لغتهم الأم ، تحرّم على الطلاب والطالبات ، وحتى اليوم ، تحريماً قاطعاً أن تبدأ الجملة بكلمة «ولكن» !

سمية رمضان

القاهرة سبتمبر ١٩٩٩

غرفة تخص المرء وحده [1]

- ١ -

ولكن ، قد تقلن ، لقد طلبنا منك أن تتحدثى عن النساء والكتابة - ما لهذا وغرفة تخص المرء وحده ؟ سوف أحاول الشرح . عندما طلبتن منى الحديث عن النساء والكتابة جلست على شاطىء نهر وبدأت أتأمل معنى الكلمات . قد يعنى الحديث عن المرأة والكتابة بضع ملاحظات عن «فانى بيرنى» ؛ وبضع ملاحظات أخرى عن «جين أوستن» أو إقراراً بفضل الأخوات «برونتى» ورسما لمكان إقامتهن [هوارث بارونيج] وهو مغطى بالثلج ؛ أو طرفة أو لمحة ذكية إذا أمكن الأمر عن الآنسة «ميتفورد» ؛ أو تنويهًا عن «جورج إليوت» مفعمًا بالتبجيل والاحترام ؛ أو إشارة إلى السيدة «جاسكال» [*] وكفى . ولكن بعد النظرة الثانية لم تعد تلك الكلمات بالقدر نفسه من البساطة التى بدت بها أول وهلة . فعنوان «النساء والكتابة» قد يعنى ، وهو ربما ما تعنونه أيضا ، النساء وعلى أى شاكلة هن ، أو قد يعنى النساء وما يكتبن ، وقد يعنى كذلك النساء وما يكتب عنهن ، وقد يعنى أيضا أن كل تلك الفرضيات مختلطة على نحو يصعب فصلها وأنكن أردتن أن أتوجه للموضوع من هذا المنحى . ولكن عندما بدأت فى التفكير فى العنوان بهذا الشكل الأخير ، الذى بدا لى أكثر التوجهات إثارة للخيال ، سرعان ما أدركت أن ذلك المنطلق ينضوى تحت عائق قاتل ، هو إننى لا يمكننى الوصول إلى خُلاصة لو اتبعت هذا الطريق الأخير . ولن يكون فى استطاعتى الوفاء بما أعتقد أنه أول واجبات من يحاضر - وهو تزويدكن بعد ساعة من الحديث بركزة من الحقيقة الخالصة تستطعن إدراجها وضمها فى كراساتكن ووضعها على رف المدفأة لتبقى هناك إلى الأبد . لقد بدا لى أن كل ما فى وسعى عمله هو أن أقدم لكم رأيى الخاص حول نقطة واحدة صغيرة : إذا أرادت امرأة الكتابة فعليها أن تمتلك غرفة تخصها وحدها وبعض المال .

---

(١) هذا المقال المطول مستوحى من محاضرتين القيتا فى جمعية الفنون فى نيونهام ومقر الأوداتا فى جيرتون فى أكتوبر ١٩٢٨ . كانت المحاضرتان أطول من أن تقرءا بكاملهما . وقد راجعتهما فاضفت وغيرت .

(*) أسماء روائيات إنجليزيات من القرن التاسع عشر (م) .

وهذا[٨]، كما سوف ترون ، يترك مسألة طبيعة المرأة الحقيقية (وهى مشكلة عظيمة) بلا حل ، كما يترك السؤال حول طبيعة كتابة الأدب الحقيقية بلا إجابة . لقد تملصت من واجبى لحل هاتين المشكلتين - النساء وكتابة الأدب . وبذا ، تظل المسألتان من حيث موقعى الخاص على الأقل ، دون حل . ولكن ، وحتى أعوضكن بعض الشىء سوف أفعل ما فى وسعى كى أريكن كيف وصلت إلى هذا الرأى حول الغرفة والمال . سوف أتبع معكن الخيط الذى أوصلنى إلى ذلك الرأى ، وسوف أفعل ذلك فى حرص كبير على عدم التقيد والإسهاب . فربما لو كشفت لكن عن الأفكار ، والانحيازات التى أدت إلى تلك النتيجة لتبدى لكن أن بعضها يخص النساء وبعضها الآخر يخص الأدب .

على كل حال ، عندما يكون موضوع ما مثار جدل كبير - وكل ما يخص الجنس هو كذلك - يستعصى الأمل فى قول الحقيقة ، ويكون كل ما يستطيعه المرء فى هذه الحالة هو الإفصاح عن الكيفية التى وصل بها إلى تكوين رأى بعينه . يكون كل ما فى وسع الإنسان ، حينئذ ، هو أن يعطى مستمعيه فرصة تكوين رأيهم الخاص وهم بصدد تأمل انحيازات أسلوبه ، ومحدودياته . وقد يكون الأسلوب الأدبى فى هذه الحالة أكثر قدرة على نقل الحقيقة عما سواه . ولذا ، فإننى أنوى الاستفادة من التسامح والحرية المكفولة للروائيين فيما يخص الخيال كى أحكى لكن حكاية اليومين اللذين قضيتهما قبل مجيئى إليكن هنا - وكيف أننى ، تحت وطأة المسئولية التى حملتمونى إياها ، بدأت «أشغل» الموضوع فى نسيج حياتى اليومية . وأظننى لست فى حاجة إلى القول إن ما سوف أصفه هنا ليس له وجود فى الواقع . فأوكسبردج مكان من اختراعى [*] ، وكذلك «فيرنهام» ؛ أما ضمير «الأنا» الذى أستخدمه فليس إلا وسيلة سهلة وملائمة للإشارة إلى شخص ليس له كيان حقيقى . سوف تتدفق الأكاذيب على لسانى ولكنها أكاذيب مشوبة بالحقيقة وعليكن أن تسعين إلى تلك الحقيقة وأن تقررن فيما إذا كان أى جزء منها يستحق الاحتفاظ به . وإن كان الأمر غير ذلك فلتلقين كل ما أقول إلى سلة المهملات وتنسينه جملة وتفصيلا .

ها أنا ذا . أطلقن علىّ أى اسم تشاءون - مارى بيتون ، مارى سيتون ، مارى كارمايكل لا يهم إطلاقًا . ها أنا ذا جالسة على ضفاف نهر منذ أسبوع أو أكثر فى شهر أكتوبر والجو صحو وجميل ، ومستغرقة تماما فى التفكير . كان عنقى يرزح تحت ثقل الطوق الذى طوقتمونى به ، «النساء والكتابة» ، وضرورة الوصول إلى خلاصة ما فى الموضوع ، ذلك الموضوع الذى يثير كل أنواع التعصب والانحيازات . جلست ورأسى مطأطأ ، وعن يمينى وعن يسارى شجيرات عشب من مختلف الأنواع ، بعضها ذهبى وبعضها قرمزى بدت وكأنها حرقت بسخونة النار . على الضفة الأخرى كانت أشجار اللبلاب تبكى وشعرها المنساب حول جذعها عويل وحزن مستمر . وعكست

(*) أوكسبردج اسم جامعة خيالية اشتقته فرجينيا وولف من اسم الجامعتين العريقتين «أكسفورد» و «كامبردج» .

صفحة النهر ما بدا لها من السماء والجسر والشجرة المحترقة ، وعندما كان الطلاب يشقون صفحة النهر بمجاديفهم (خلال الصورة المنعكسة على الماء) ويمضون ، ينغلق النهر من وراء المجاديف وكأن أحداً لم يشقه . كان من الممكن أن أظل قابعة هناك على مدار الزمن مستغرقة فى الفكر . الفكر – اسم أكثر إباءً مما يستحقه ما كنت أمارس آنذاك . على كل – وأيا ما كان اسمه أنزل – «سنارته» إلى الماء فاهتز الماء دقيقة تلو الأخرى ، هنا وهناك وسط الصور المنعكسة والطحالب ، جاعلاً الماء يطفو به ويغمره – تعلمون ما يحدث عندما يُلقم الطعم ، تلك الشدة الصغيرة – مجموعة مفاجئة من الأفكار وقد تجمعت فى نهاية «السنارة» : ثم عملية جذبها إلى الخارج بحرص وترتيبها جنبا إلى جنب برفق ؟ ولكن يا الله ، كم يبدو الصيد وقد صف على الحشائش صغيراً قليلاً غير ذى بال : وكأنه السمكة التي يلقى بها الصياد الطيب ثانية إلى الماء حتى تكبر وتسمن ويكون طبخها وأكلها مجدياً ذات يوم . ولكنى لن أقلقكن بهذه الفكرة ، وإن كنت أظن أنكن لو نظرتن ملياً سوف تجدونها بأنفسكن فيما سوف أقول الآن .

لكن مهما تراءى لنا من صغرتلك السمكة وقلة شأنها فإن لها ، على الزغم من ذلك ، خاصية غامضة – إذا أعدناها إلى الذهن مرة أخرى تصبح فى الحال مثيرة جداً ، ومبهمة جداً ؛ حتى إنها وهى تتلوى وتقفز وتتنفس وتبرق هنا وهناك إنما تتسبب فى لجة متقافزة من الأفكار التى يصعب معها السكون ؟ كان هذا هو حالى وقد وجدت نفسى أمشى بسرعة فائقة عابرة حقل الحشائش . فجأة ظهر أمامى رجل اعترض طريقى . ولم أفهم فى البداية أن الحركات التى كان يؤديها هذا الشخص غريب المظهر موجهة لى . كان يرتدى بالطو وقميصاً مما يخصص للحفلات . كانت تعلو وجهه إمارات الانزعاج والسخط . ما أسعفنى كانت الغريزة وليس العقل : أنا امرأة وهذا حارس (بيدل) (*) وهذا الذى تحت قدمى حشائش وكان هناك درب ؛ والسير على الحشائش ليس مسموحاً به إلا للطلاب والأساتذة ، أما أنا فمكانى ذلك الدرب المفروش بالحصباء . كانت تلك الأفكار وليدة اللحظة . عندما صححت مسارى سقطت يدا الحارس إلى جانبيه ، واتخذ وجهه سمتة المعهود من سكون واطمئنان . ومع أن الحشائش أفضل للمشى عن الحصباء إلا أنه لم يحدث لى ضرر . ولم يكن فى وسعى اتهام أساتذة تلك الكلية وطلابها ، أيا كان اسمها ، إلا أنهم قد حرصوا على العناية بهذا «النجيل» لمدة ثلاثمائة عام متوالية وبذا تسببوا فى هرب سمكاتى التى كنت جمعتها عند النهر . لم أعد أذكر الفكرة التى نحت بى إلى التعدى على «النجيل» وتجاوز الحدود . نزلت روح السلام مثل سحابة من السماء . لو أن روح السلام تسكن مكانا ما فلابد أن يكون هذا المكان هو أفنية أوكسبردج أحد أيام شهر أكتوبر .

(*) البيدل فى الأصل مساعد للقسيس ولكنه فى هذا السياق المشرف على حدائق وطرقات الكليات فى الجامعة . وفى أكسفورد – مثلا – تقاليد صارمة تنظم السير على النجيل .

خشونة الحاضر تبدو وقد أصبحت ملساء ، والمرء يمشى بتؤدة خلال دروب الكليات العتيقة وبجوار جدرانها الشامخة . ويبدو الجسد وقد احتواه صندوق زجاجى سحرى لا تصله الأصوات ، ويتحرر الذهن من كل اتصال بالواقع ومفرداته (إلا إذا تعدى المرء لا قدر الله على «النجيل» مرة أخرى) وأصبح حرًا فى تأمل أى فكرة تنسجم مع اللحظة . وشاء الحظ أن تكون تلك الفكرة هى ذكرى شاردة من مقالة قديمة عن زيارة ثانية لأوكسبردج قام بها تشارلز لامب – أو القديس لامب كما وصفه الروائى «ثاكرى» ثم قام بوضع الرسالة التى بعث بها إليه لامب على جبهته . الحقيقة أن لامب دون كل المتوفين – وأنا هنا أعيد عليكم أفكارى بالترتيب كما تراءت لى فى حينها – هو ألطفهم معشرًا . فهو يبدو لى من ذلك النوع الذى يستطيع المرء أن يقول له : أحك لى كيف كتبت مقالاتك ؟ فمقالاته أكثر تميزًا عن مقالات ماكس بيربوم حتى ، على الرغم من تمام تلك الأخيرة المحكم ، وذلك لأن مقالات لامب بها ذلك الوهج من الخيال ، يطقطق وسطها برق العبقرية فيتركها منقوصة معيبة ولكنها متوهجة بالشعرية . جاء لامب إلى أوكسبردج منذ مائة عام ربما . ولكن مما هو مؤكد أنه كتب مقالا – لا أتذكر عنوانه الآن – وكان عن إحدى مخطوطات الشاعر «ميلتون» التى رآها هنا . كانت مخطوطة قصيدة «لايسيدس» ربما ، وكتب لامب عن صدمته عندما علم أن كلمات القصيدة قد بدلت قبل أن تصل إلى شكلها الذى عرفه . لقد بدت له فكرة ، أن يكون ميلتون قد قام بتغيير الكلمات فى القصيدة نوعًا من انتهاك لحرمة المقدسات . وقادنى ذلك الخاطر إلى تذكر القصيدة وأن أتسلى بتخمين الكلمات التى استبدلها ميلتون بأخرى ! ولم ؟ . ومن ثم تبادر إلى ذهنى أن المخطوطة نفسها التى رآها لامب تبعد عنى ببضع ياردات وأنه فى استطاعتى أن أقتفى أثر لامب عبر الفناءات ، وأصل إلى المكتبة الشهيرة حيث يحفظ الكنز .

تذكرت ، إضافة إلى ذلك ، وأنا بصدد تنفيذ خطتى ، أن مخطوطة رواية «إزموند» للروائى ثاكرى محفوظة فى المكتبة نفسها . كثيرًا ما يقول النقاد إن «ازموند» هى أفضل روايات ثاكرى على الإطلاق . ولكن أسلوبها يعيق المرء ؛ حيث يتصنع محاكاة أسلوب القرن الثامن عشر ، إذا لم تخنّى الذاكرة – إلا إذا كان أسلوب القرن الثامن عشر طبيعيا بالنسبة لثاكرى – وهى تفصيلة من الممكن التحقق منها بالاطلاع على المخطوطة لنرى ما إذا كانت التعديلات التى قام بها الكاتب من أجل الأسلوب أو المعنى . ولكن يتسنى علينا فى هذه الحالة أن نقر تعريفا يفصل ما بين الأسلوب والمعنى ، وهو سؤال – ولكنى كنت قد وصلت بالفعل إلى باب المكتبة. لابد أننى قمت بفتح الباب ، لأنه ظهر لى فى الحال مما بدا وكأنه ملاك حارس قطع على الطريق بحركة أدت إلى اختفاق إكمام الروب الأسود الذى كان يرتديه بدلا من أجنحة الملائكة البيضاء ، سيد فضى الشعر، مستنكرًا ، فى طيبة بادية ، متأسفًا فى صوت خفيض وهو يشيح بى إلى الخارج قائلا : إن المكتبة غير مسموح بارتيادها للسيدات إلا فى صحبة أستاذ من الكلية أو بخطاب توصية خاص .

أن تلعن امرأة ما المكتبة الشهيرة أمر لا يهم ولا يعنى المكتبة فى شىء . تلك المكتبة الهادئة ، المتسربلة فى وقارها وكل كنوزها محبوسة فى أمان فى جوفها ، تنام المكتبة مطمئنة باستسلام ، وسوف تنام فيما يخصنى ، إلى الأبد . فقد أقسمت وأنا أنزل السلالم غاضبة أننى أبدا لن أطلب كرم ضيافتها ولن أوقظ رجع الصدى هذا . ولكن بقيت ساعة على موعد الغداء ، وكيف أقضى تلك الساعة ؟ أتمشى بين المروج ؟ أجلس بجانب النهر ؟ لقد كان اليوم خريفيا بديعًا ، هذا صحيح : وكانت أوراق الشجر تهفهف طائرة إلى الأرض فى ألوان الخريف ؛ ولم يكن يتطلب المشى بمجاذاة النهر أو الجلوس أى مجهود يذكر .

تنامى إلى سمعى صوت الموسيقى . كان هناك قداس أو احتفال ما . وكان صوت آلة الأورغن فخيما عندما مررت بباب الكنيسة الصغيرة ، حتى إن أحزان المسيحية بدت فى هذا الجو المفعم بالهدوء مثل ذكرى شجن وأحزان لا الحزن نفسه ؛ وحتى صرير الأورغن العتيق بدا وكأنه مغلف بالهدوء والسلام . لم تكن بى رغبة فى الدخول . حتى لو كان الدخول من حقى . كان محتملاً أن يمنعنى خادم الكنيسة من الدخول طالبا شهادة تعميدى أو خطاب توصية من عميد الكلية . ولكن واجهة تلك المبانى كثيرًا ما تكون على الدرجة نفسها من الجمال كداخلها . إضافة إلى ذلك كانت مشاهدة جموع المصلين وهم يتجمعون ، يروحون ويغدون ، يشغلون أنفسهم عند باب الكنيسة كما ينشغل جمع من النحل أمام باب الخلية ، كانت مسلية جدًا . وكان الكثيرون منهم يرتدى زى الكلية الرسمى (الكاب والمعطف) وكان لبعض المعاطف قطعًا من الفراء على مناكبها ، وكان آخرون يجلسون فى مقاعد من ذوات العجلات ، وهم لم يتعدوا سن الكهولة ، ولكنهم بدوا وكأنهم تصلبوا على أشكال فريدة ذكرتنى بعقارب النهر وسرطانات البحر العملاقة التى تتحرك بصعوبة وهى تقطع الرمال فى حوض الأسماك . وعندما استندت إلى الحائط بدت الجامعة ملاذا ومحمية لحفظ الأنماط الغريبة التى كانت سريعا ما تنقرض لو أنها تركت لتحارب من أجل البقاء على الرصيف فى الشارع الرئيسى . واسترجعت حكايات قديمة عن عمداء الكليات القدامى والأساتذة القدامى ولكن قبل أن أستجمع شجاعتى وأصفر- فقد كان يقال إن البروفيسور فلان ينطلق فى العدو لدى سماع صوت صفير - كان جمع المصلين قد دخل إلى الكنيسة . وبقى الجدار الخارجى . وهو ، كما تعلمون ، ذو قباب عالية من الممكن رؤيتها بصوامعها دقيقة الرأس مثل سفينة ذات قلاع دائمة الترحال لا ترسو إلى بر ، تنار بالليل فيراها الناظرون على بعد أميال ، عبر التلال البعيدة . كانت تلك الرقعة المربعة وما بها من «نجيلة» ناعمة وما تحمل من مبانٍ ضخمة والكنيسة كذلك ، كانت كلها فى يوم ما-أرض موحلة ، يصفر الريح متخللا حشائشها البرية وتأوى إليها الخنازير . لابد أنهم نقلوا

الحجارة على عربات تجرها الخيل والثيران من بلاد بعيدة ، ثم يعمل دؤوب صبور وضعوها فى نظام ، واحدة فوق الأخرى ، وبعدها جاء عمال البياض وأضافوا الزجاج للنوافذ ، وجاء البناؤون وانشغلوا لعدة قرون يضعون اللمسات الأخيرة للسقف يسدون الخروق بالطين الأسمنتى وبمعاولهم و «المسطرين» . لابد أن أحدهم كل يوم سبت كان يسكب الذهب والفضة من حافظة نقوده الجلدية فى أياديهم العتيقة ، لأنه لابد وأنهم كانوا يشربون البيرة ويلعبون لعبة الدومْنْ والأوتاد فى المساء .

لابد أن نهرا من الذهب والفضة جرى باستمرار فى هذا الفناء كى يستمر جلب الحجارة ويظل البناءون يعملون : يسوون المسطحات ويحفرون الخنادق ويتخلصون من المياه . ولكن الزمن كان زمن الإيمان ولذا تدفقت الأموال بكرم وأريحية كى توضع تلك الحجارة على أسس عميقة . وعندما انتهوا حتى من وضع الحجارة ، ظلت الأموال تتدفق من مخازن الملوك والملكات والنبلاء العظام ليضمنوا أنْ تظلّ التراتيل قائمة هنا ويظل الدارسون وطلبة العلم يتلقون العلم . منحت الأراضى ودفعت ضرائب العشر التى كانت تورد للكنيسة . وعندما انتهى زمن الإيمان وجاء زمن العقل والعقلانية ظل تدفق الذهب والفضة على حاله : أسس نظام المنح العلمية وأوقفت الأموال للصرف على عملية التدريس وصار الذهب والفضة يتدفق لا من مخازن الملوك ولكن من خزائن التجار والصناع ، من جيوب رجال كونوا ثرواتهم من الصناعة على سبيل المثال ، ثم أعادوا فى وصياتهم جزءا سخيا من تلك الثروات للإنفاق على «كراسى الأساتذة» وعلى منح التدريس والدراسة فى الجامعة التى تعلموا فيها حرفتهم . من هنا ، كانت المكتبات والمعامل والمراصد والمعدات الفخمة الغالية والأدوات الدقيقة التى تحتل اليوم مكانها على الأرفف الزجاجية حيث كانت الحشائش البرية تتمايل وتسرح الخنازير منذ عدة قرون . بدا لى ، وأنا أتجول فى هذا الفناء ، أن الأساس الذى استهلك كل هذه الفضة وكل ذلك الذهب متينٌ حقا . كان الرصيف مصقولا بقوة فوق الحشائش ورجال يحملون الصوانى على رؤوسهم يروحون ويغدون من سلم إلى آخر . وفى النوافذ أوان من الورود الفاقعة . وعلت أصوات الجرامافون من الغرف بالداخل . كان مستحيلا ألا أتأمل - ولكن التأمل أيا كان موضوعه انقطع فجأة . دقت الساعة وحان وقت الغداء وكان على الذهاب .

للروائيين مقدرة خاصة ومثيرة على إقناعنا بأن حفلات الغداء ، دائمًا وبلا استثناء ، لا تنسى لأن شخصًا ما قال يومها شيئًا لماحًا على وجه خاص ، أو لأن أحدهم فعل شيئًا فى منتهى الحكمة . ولكنهم نادرًا ما يشيرون إلى الطعام . فمن تقاليد الروائيين ألا يشيروا إلى الحساء أو البط والسلامون ، وكأن الحساء والبط والسلامون لا أهمية لها على الإطلاق . وكأن أحدًا لم يدخن سيجارًا أو شرب كأسًا من النبيذ فى تلك الحفلات . أما أنا فسوف أتحدى هنا ذلك التقليد وأحكى لكم . الغداء فى تلك المناسبة

بدأ بسمك السول ، غارقًا فى طبق عميق غطاه طاهى الكلية بطبقة من «الكريمة» شاهقة البياض ، وإن بدت هنا وهناك وقد لمستها النار كأنها المبرقشات التى يحملها جلد الغزلان . بعد السمك جاء دور الطيور . ولكن إذا تبادر إلى ذهنكن أنها كانت مكونة من طائرين منفوضى الريش بنيى اللون وضعا على طبق فأنتن مخطئات . لقد كانت طيور «الحجلة» المقدمة فى ذلك الطبق كثيرة ومتنوعة وجىء معها بكافة أنواع الصلصات والسلطات ، بعضها لاذع وبعضها حلو ، كل فى دوره . أما البطاطس التى قدمت مع ذلك الطبق فكانت فى شرائح رقيقة فى حجم العملة الصغيرة ولكن دون يبوستها . وكانت الخضر المصاحبة للطيور مثل براعم الورد ولكن ألذ مذاقًا . وما إن انتهى لحم الشواء وما صاحبه هو الآخر من أطباق جانبية حتى ظهر أمامنا الخادم الصامت ، ربما كان «البيدل» نفسه فى مظهر أقل صرامة ، ووضع أمامنا نوعًا من الحلوى متوجًا بالفوط الرقيقة التى ظهرت من وسطها أمواج من السكر الخالص . لو أسمينا هذا الذى كان يقدم لنا «بودينج» وبذا ربطنا ما بينه وبين الأرز والسميط لكان ذلك منتهى الإهانة . خلال كل هذا كانت الكؤوس تفور تارة باللون الأحمر وأخرى باللون الأصفر حتى إذا فرغت تملأ من جديد . وبذا أضاء فى مكان ما فى منتصف العامود الفقرى (وهو المكان الذى توجد به الروح) ذلك النور المشع الرهيف ؛ لون التبادل العقلانى الثرى الأصفر العميق ، وحل محل ذلك الضوء الآخر الكهربى الذى نطلق عليه لفظة «الألحية» التى تتقافز على الشفاة . لم يعد هناك حاجة للسرعة ولا للمعان ، وانتفى الداعى أن يكون المرء أى شىء غير نفسه . سوف نذهب جميعنا إلى الجنة وبصحبتنا «فانديك» كذلك . بعبارة أخرى ، كم بدت جميلة الحياة ، كم هى حلوة مكافأتها ، وكم بدت ضئيلة تلك المظلمة أو تلك الضغينة ، وكم هى بديعة صداقات المرء بين أقرانه ، وهو يشعل سيجارة جيدة ، ويغوص وسط الوسائد الوثيرة بجانب النافذة .

لو تصادف لحسن الحظ وكانت هناك بالقرب من يدى منفضة ، وأنى لم أنفض رماد سيجارتى من النافذة لعدم وجود منفضة ، لو كانت الأمور مختلفة بعض الشىء عما كانت بالفعل عليه ، لما رأيت بالتالى ما رأيت خارج النافذة : قطة بلا ذيل . لقد بدل منظر ذلك الحيوان المبتور المفاجئ ، وهو يتمشى بنعومة قاطعًا الفناء ، الضوء العاطفى الذى كنت حتى تلك اللحظة أرى به الأمور ، وحول المنظر من خلال رمية صائبة للوعى وذكائه . وكأن أحدهم قد ترك ظلا يسقط . ربما كان أثر النبيذ الفاخر قد بدأ يتلاشى . ولكن مما هو مؤكد أن شيئًا ما بدا منقوصًا ، شيئًا ما بدا مختلفًا وأنا أراقب ذلك القط فاقد الذنب وهو يقف برهة على رقعة الحشيش الناعمة وكأنه هو أيضًا يسائل الكون . ولكن ما الذى اختلف بما وجه النقصان ؟ ، سألت نفسى وأنا أتسمع الحديث الدائر من حولى . وحتى يتسنى لى الإجابة على السؤال كان على أن أضع

ذهنى خارج تلك الغرفة ، بعيداً فى الماضى ، قبل الحرب ، وأن أضع أمامى ناظرى نموذجاً لحفل غداء آخر عقد فى مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الحالى ، لكنه مختلف . كان كل شىء مختلفاً . وفى تلك الأثناء كان الحديث بين الضيوف مستمراً . كانوا كُثر ، وكان كثير منهم من الشباب ، ذكور وإناث ؛ والحديث يسبح بينهم فى يسر ، مسلياً لطيفاً . ولما وضعته على خلفية ذلك الحديث الآخر وضاهيتهما لم يكن لدى أدنى شك أن الثانى كان الوريث الشرعى للأول . لم يتغير شىء ولم يختلف شىء سوى – ولكن فى تلك اللحظة كنت أصغى إصغاء تاماً ليس لما كان يقال ، ولكن للهمهمات والتيار الجارى من ورائها . نعم ، كان الأمر كذلك – كان التغير قابعاً هناك . قبل الحرب فى حفل غداء كهذا ، كان الناس يتحدثون بمثل ما يتحدث هؤلاء الآن ؛ الكلام نفسه . ولكن حديثهم كان يحمل نغمة أخرى ؛ لأنه فى تلك الأيام كان حديثهم مصحوباً بطنين ، ليس فصيحاً وإنما موسيقى ، مثير ، مما يبدل من قيمة الكلمات . هل فى استطاعة المرء أن يحول ذلك الطنين إلى كلمات ؟ ربما لو استعنا بالشعراء نستطيع . كان هناك كتاب على مقربة ، فتحته دون اهتمام كبير على قصيدة لتنيسون . وهنا وجدت تنيسون يغنى :

سقطت دمعة بديعة من وردة الوجد عند الباب

إنها قادمة ، حبيبتى ، يمامتى

حياتى وقدرى ، قادمة

والوردة الحمراء تنبهنى : قريبة هى ، قريبة

والوردة البيضاء تبكى : تأخرت

ويصغى نبات العايق ، إنى أسمع ، أسمع

وتهمس الزنبقة : إنى أنتظر

هل كان يصاحب مثل هذا الطنين ما يقوله الرجال فى حفلات الغداء قبل الحرب ؟ والنساء ؟

قلبى مثل عصفور بغرد

عشه فى قلب برعم سقاه الماء

قلبى مثل شجرة تفاح

أغصانها محنية ثقيلة بالثمار

قلبى مثل قوقعة قوس قزح

تسبح فى بحر هادىء وادع
قلبى أكثر ابتهاجًا من كل هؤلاء .
لأن حبى جاء لى

هل كان هذا ما تظن به النساء فى حفلات الغداء ما قبل الحرب ؟

بدا لى هذا الخاطر من السخف حتى إننى انفجرت فى الضحك وكان على شرح سبب ضحكى هكذا فرحت أشير إلى القط ، الذى بدا غريبا ، المسكين ، وهو يتمشى وسط الجشائش دون ذيل . هل ولد هكذا بالفعل أم أنه فقد ذيله فى حادث ما ؟ فالقطط من هذا النوع - ويقال إنها توجد فى جزيرة الأيل أوف مان - نادرة أكثر مما نتصور . وهى حيوانات عجيبة ، ليست جميلة بقدر ما هى طريفة . عجيب الفارق الذى يوجده الذيل - تعلمون الأشياء التى تقال عندما يوشك حفل الغداء على الانتهاء وينشغل الناس بالبحث عن معاطفهم وقبعاتهم . أما حفل الغداء الذى كان يوشك الآن على الانتهاء فقد امتد ، بفضل كرم المضيف ، حتى قرب المساء . كان اليوم الخريفى الجميل يتلاشى وأوراق الشجر تسقط من أغصان الأشجار فى الشارع العريض وأنا أتخلله . وبدت الأبواب واحدا تلو الآخر وكأنها تنغلق فى نهائية ناعمة من ورائى . كان هناك العديد من حراس الكليات يغلقون بمفاتيحهم العديدة الأقفال المعتنى بها المزيتة جيدًا . كان بيت الكنوز يحصن لليلة أخرى . بعد الشارع العريض يفاجأ المرء بطريق ، نسيت الآن اسمه - يفضى لو أنك انعطفت يمينا إلى «فارنهام» . ولكن ما زال لدى متسع من الوقت . لم يكن موعد العشاء قبل الساعة السابعة والنصف . وكان من الممكن التغاضى عن العشاء بعد ذلك الغداء الممتاز . عجيب كيف يؤثر مقطع من الشعر على الذهن ويفرض على القدمين أن تتحركا على إيقاعه . تلك الكلمات :

سقطت دمعة بديعة من وردة الوجد عند الباب
إنها قادمة حبيبتى ، يامتى

سرت الأغنية مع دمى وأنا أمشى مسرعة فى اتجاه «هيدنجلى» . ثم بدلت النغمة بأخرى وغنيت حيث يخضخض الماء عند منخفض النهر :

قلبى مثل عصفور بغرد
عشه فى قلب برعم سقاه الماء
قلبى مثل شجرة تفاح
أغصانها ...

يا لهم من شعراء .. قلت بصوت عال كما يفعل المرء فى الغسق ، يا لهم من شعراء كانوا !

وربما ، بحكم نوع ما من الغيرة على زمننا ، ومع أنى أعلم سخافة عقد مثل تلك المقارنات ، وجدتنى أتساءل عما إذا كان فى مقدورنا أن نسمى من بين الأحياء الذين يكتبون اليوم ، بصدق وأمانة ، شاعرين على الدرجة نفسها من العظمة التى كان عليها تنيسون وكرستينا روزيتى فى وقتهما . هو بالطبع أمر مستحيل أن نقارنهما . قلت لنفسى وأنا أحدق فى الماء الذى كان يرغى تحت ناظرى . إن السبب فى أن هذا الشعر مثير لأريحية البهجة والسرور وذهول الفرح هو أنه كان شعرًا يحتفل ببعض من المشاعر التى كانت تنتابنا فى حفلات الغداء قبل الحرب ربما . وهكذا ، يكون رد فعلنا لهذا الشعر بسيط وتلقائى وسهل ، حميم دون داع لامتحانه أو مقارنته بالمشاعر التى تمر علينا الآن . أما الشعراء الذين يحيون معنا فيعبرون عن مشاعر مقتطعة منا فى اللحظة الآنية لحال صناعتها . والمرء لا يتعرف عليها للوهلة الأولى ، كما أن المرء يخافها لسبب ما فى كثير من الأحيان ، نرقبها باهتمام ونقارنها بحس لا يخلو من الغيرة مع المشاعر القديمة التى عرفناها . من هنا تنبع صعوبة الشعر الحديث . وبسبب تلك الصعوبة لا يستطيع المرء أن يتذكر أكثر من سطرين متتاليين من شاعر حديث جيد . لهذا السبب - وخانتنى ذاكرتى - وترنحت حجتى لعدم وجود مادة تعضدها . ولكنى - وأنا أتجه نحو «هيدنجلى» رحت أتساءل ، أستكمل أفكارى ، لماذا توقفنا عن الدندنة فى حفلات الغداء . ولماذا توقف ألفريد عن الغناء :

إنها قادمة ، يمامتى ، حبيبتى

ولماذا توقفت كرستينا عن الرد :

قلبى أكثر ابتهاجا من كل هؤلاء

لأن حبى جاء لى

هل نلقى اللوم على الحرب ؟ عندما انطلقت المدافع فى أغسطس ١٩١٤ ، هل عكست عيون الرجال والنساء وهم ينظرون فى وجوه بعضهم البعض موت الرومانسية قتيلة ؟ من المؤكد أنها كانت صدمة للنساء بالذات (لما لهن من أوهام عن التعليم وما إلى ذلك) أن يروا وجوه حكامنا فى ضوء القنابل الحارقة . كم بدوا قبحاء - الألمان ، الإنجليز ، الفرنسيون - كم بدوا أغبياء !

ولكننا ، إذا ألقينا اللوم على أى من كان ، يظل الوهم الجميل الذى أوحى لتنيسون وكرستينا روزيتى بمثل ذلك الغناء مؤجج العاطفة أندر فى وقتنا هذا عما كان عليه من قبل . على المرء أن يقرأ فقط ، أن ينظر ، أن ينصت كى يتذكر . ولكن لماذا نستعمل لفظة «اللوم» ؟ لماذا لو كان الأمر كله «وهم» لا نمدح الكارثة ، أيا ما كانت ، التى قضت على الوهم ووضعت الحقيقة مكانه ؟ وذلك لأن الحقيقة ... هذه النقاط ترقم المكان الذى ، فاتتنى فيه الفتحة المؤدية إلى فارنهام فى خضم بحثى عن الحقيقة . نعم بالفعل ، أى منهم كان الوهم وأى منهم كان الحقيقة ؟ سألت نفسى . ماذا كانت حقيقة تلك البيوت ، مثلا ، بأضوائها الخافتة الآن ، والتى تحتفى نوافذها الحمراء بقدوم الغسق . وفى التاسعة صباحاً ، سوف تكون النوافذ نفسها نيئة حمراء ، قذرة ويائسة بفضلاتها من الحلوى وأربطة الأحذية المتناثرة فى أركانها . وأشجار الصفصاف والنهر والحدائق التى تبدو غير واضحة الآن من وراء الضباب الرقيق الذى يتسلل فوقها وكانت ذهبية وحمراء فى ضوء الشمس - أيهما كان وهما وأيهما كان الحقيقة ؟ سوف أعفيكن من التواءات ودورانات أفكارى وتدقيقى . فأنا لم أصل إلى نتائج على طريق هيدنجلى وأطلب منكن أن تفترضن أنى سرعان ما اكتشفت خطئى وعدت أدراجى إلى الفتحة التى تؤدى إلى فارنهام .

كما سبق وأشرت ، كان اليوم هو أحد أيام أكتوبر . فأنا لا أجرؤ على إهدار احترامكن لى ، وأغامر بالمكانة التى يحتلها فن تأليف القصص فى النفوس ، فأبدأ بوصف زهور الليلك وهى تتدلى على الحيطان أو زنابق التيوليب وأزهار الكركم فكلها من ورود الربيع . فالتأليف يجب أن يظل ملازما للحقائق ، وكلما كان التأليف أقرب إلى الحقائق كان جيداً - هكذا يقولون . وعليه ، كان الفصل ما زال خريفاً وكانت الأوراق ما زالت صفراء كما أنها ما زالت تتساقط ، ربما على نحو أسرع قليلا عن قبل لأن المساء قد حل (السابعة وثلاث وعشرون دقيقة بالتحديد) وقد بدأت نسمة (من الجنوب الغربى كى نتحرى الدقة) تهب . ولكن كان هناك شىء عجيب يعمل فعله فى كل هذا :

> قلبى مثل عصفور يغرد
> عشه فى قلب برعم سقاء الماء
> قلبى مثل شجرة تفاح
> أغصانها محنية ثقيلة بالثمار -

ربما كانت كلمات كرستينا روزيتى مسئولة جزئيا عن هذا الحمق أو هذا الوهم - فلم يكن سوى وهم متخيل أن تنفض زهور الليلك أوراقها فوق حيطان الحديقة ، وأن الفراشات الكبريتية كانت تسوقها النسائم هنا وهناك وأن غبار الطلع الأصفر كان يملأ الهواء ويستعد لتلقيح النباتات .

هبت ريح لا أدرى من أى جهة ولكنها ارتفعت بأوراق الشجر حتى إن الجو أومض بلون رمادى فضى . كان الوقت ما بين تحول الألوان حيث تتكثف الألوان ويضوى البنفسجى والذهبى فوق زجاج النوافذ مثل قلب تسهل استثارته ؛ ولسبب ما انكشف لناظرى جمال العالم الذى كان على وشك الاضمحلال (وفى تلك اللحظة ، اتجهت نحو الحديقة) ؛ وذلك لأن أحدهم عكس ما تقتضى الحكمة كان قد ترك الباب مفتوحاً ولم يك ثمة حراس فى الأفق) . كان لجمال العالم وشيك الاضمحلال حدان ، أحدهما للضحك والآخر لألم الحسرة ؛ وكان الاثنان يقطعان نياط القلب . امتدت أمامى حدائق فارنهام فى غسق ربيعى ، مفتوحة ومتوحشة انتشرت الورود هنا وهناك بين الحشائش الطويلة ؛ الزنابق والجرسة الزرقاء فى غير نظام وهى التى لا تنتظم فى أحسن الأحوال ، كانت الآن تتمايل بفعل الريح تكاد تنتزع من جذورها . احدودبت نوافذ البناء مثل الطاقات فى السفينة وسط أمواج غزيرة من الطوب الأحمر ، وتبدلت من اللون الليمونى إلى الفضى تحت سحب الربيع المسرعة . كان أحدهم يتأرجح على سرير هزاز بين شجرتين فى الحديقة ولكنه فى هذا الضوء بدا شبحيا ، نصف مرئى ، ربما كانت امرأة راحت تعدو بسرعة فوق النجيل – هل يوقفها أحد ؟ وعلى «التراس» بزغت امرأة فجأة كأنها تخرج من تحت الماء للتنفس ، تلقى نظرة على الحديقة منحنية ، مهيبة الطلعة ولكنها متواضعة ، لها جبين عظيم وترتدى فستانا باهتا رثا ، هل يعقل أن تكون تلك هى العالمة الشهيرة ج. هـ نفسها ؟ كان كل ما حولى كابياً أغبش ومكثفاً . وكأن الشال الذى غشى به الغسق الحديقة قد انفتق بفعل نجمة أو سيف – وميض حقيقة فظيعة وثبت ، كما تثب الحقيقة ، من قلب الربيع . وذلك لأن الشباب – ها هو قد وصل حسائى . كان العشاء يقدم فى حجرة الطعام الكبيرة . كان الوقت أبعد كل البعد عن الربيع ، كان الوقت فى الواقع أمسية فى أكتوبر . وكان الكل مجتمعاً فى حجرة الطعام الكبيرة . كان العشاء جاهزاً . ها هو الحساء . حساء لحم بسيط بلا إضافات . ولم يكن به ما يؤجج الخيال . كان فى استطاعة المرء أن يرى من خلال السائل الشفاف الرسم المطبوع على الطبق الذى قدم فيه الحساء لو كان بالطبق رسومات ؛ لكن الطبق كان بلا رسوم . بعد الحساء جاء اللحم ومعه المعتاد من الخضروات والبطاطس – الثالوث المتواضع ، مذكراً بأفخاذ الماشية فى سوق موحلة ، وخضرٌ «السبراوت» ملتوية ومصفرة عند حافاتها ، مذكراً بالنسوة يزايدن ويفاصلن على الثمن يحملن حقائبهن المصنوعة من الألياف صباح يوم اثنين . لم يكن هناك داع للتذمر من طعام الإنسانية المعتاد بما أن الكمية كانت ولا شك وفيرة وبما أن عمال المناجم كانوا فى الساعة نفسها يجلسون إلى عشاء مثيل . تبع العشاء برقوق مجفف ومعه «الكاسترد» . ولو اشتكى أحد من أن البرقوق المجفف ، حتى إن كان وقعه مخففا بالكاسترد ، يظل خضاراً غير كريم بالمرة – (فهو

ليس فاكهة على أي حال) ، فهو مليء بالألياف وكأنه قلب بخيل ، ويفرز سائلا يشبه السائل الذي يجري في عروق البخلاء ممن حرموا أنفسهم من النبيذ والدفء على مدى ثمانين عاما ومع هذا فهم لا يعطون الفقراء ، لو تراءى لأحدهم أن يشكو فعليه التأمل : فهناك أناس يشمل إحسانهم وبرُّهم حتى البرقوق المجفف . بعد البرقوق جاء الجبن والبسكويت وعندها تنقل «شفشق» المياه بسخاء بيننا بما أنه من طبيعة البسكوت أن يكون جافا ، وكانت تلك البسكوتات كذلك حتى النخاع . كان هذا كل شيء . وانتهى العشاء . زحزحنا كراسينا وانفتحت الأبواب بقوة وتأرجحت ضلفاتها إلى الأمام وإلى الوراء ؛ فرغت القاعة بسرعة من كل إمارة تدل على أنه كان بها طعام منذ قليل وراحوا يعدونها ولاشك لإفطار اليوم التالي . في الردهات وعلى السلالم كان شباب إنجلترا يغنون ويحدثون جلبة . لم يكونوا غرباء هناك مثلي ، فأنا هنا كنت غريبة ولم تكن لي حقوق ، مثلما لم تكن لي حقوق في فارنهم أو في كلية ترينيتي أو جيرتون أو نيونهام أو كرايست ، حقوق بمقتضاها أستطيع أن أعلق على رداءة الطعام أو أن أقول (وقد كنا أنا وماري سيتون قد وصلنا إلى حجرة جلوسها) ألم يكن في استطاعتنا أن ناكل عشاءنا في مكان آخر» فلو أنني قلت مثل هذا لكان ذلك يعني أنني أتدخل وأبحث في اقتصاديات بيت يبدو للغرباء وقد ارتدى درعًا جميلاً من الشجاعة والبهجة . لا ، لم يكن في وسعي أن أقول شيئًا مثل هذا . وفي الواقع تعثر الحديث لحظة وذلك بما أن الهيكل الإنساني على ما هو عليه ، قلب وذهن وجسد مختلطة كلها وليست مقسمة إلى حجرات منفصلة الواحدة عن الأخرى كما سوف يحدث ولا شك بعد مليون سنة ، فالعشاء الجيد لم يزل ذا أهمية كبيرة إذا رجونا للحديث الجودة . إن المرء لا يستطيع التفكير جيداً ، أو الحب جيداً ، والنوم جيداً لو لم يتعش المرء عشاء جيداً . المصباح الذي يضيء العمود الفقري لا يومض ويشع بفعل البرقوق الجاف واللحم البقري . إننا جميعًا أغلب الظن سوف ينتهي بنا المطاف إلى الجنة ، وسوف نقابل «فاندايك» ، أو نرجو ذلك ، على الناصية التالية – هذه هي الحالة الذهنية المتشككة ، المحافظة المقيدة التي يتسبب فيها البرقوق واللحم البقري في نهاية يوم شاق من العمل . ولحسن الحظ كان لدى صديقتي التي كانت تدرس العلوم دولاب صغير به زجاجة مفرطحة وأكواب زجاجية صغيرة – (وإن كان يجب أن يكون هناك سمك سول ولحم طيور الحجلة اللذيذ كذلك) – على كل حال كان في استطاعتنا أن ندنو من المدفأة نلئم بعض من الضرر الذي تسبب فيه ذلك اليوم من الحياة . وفي خلال دقيقة أو أكثر قليلاً كان في استطاعتنا أن نمرق ونخرج بحرية بين تلافيف كل تلك الأشياء التي تثير اهتمامنا وشغفنا والتي تتشكل في الذهن في غياب شخص بعينه تحضرنا للنقاش بتلقائية عندما نلتقي – كيف تزوج أحد معارفنا ولم يتزوج آخر ؛ فكرة هنا وفكرة هناك .

إحدانا تعتقد أن أمرا ما هو على هذا النحو والأخرى تعتقد العكس ، تتطور إحداثا وتتحسن بعيدا بعيدا عن كل معوقات المعرفة أما الأخرى ويا للعجب فتذهب إلى الأسوأ . ومع كل ما يحمل التخمين عن الطبيعة الإنسانية وماهية العالم العجيب الذى نحيا فيه والتى تنبع بالطبع من مثل تلك البدايات ، وخلال ما كنا نقول من مثل تلك الأشياء ، وعيت تدريجيا وعلى استحياء بتيار يحضر تلقائيا من نفسه ويحمل كل الأمور إلى منتهى من صنعه هو . ربما كنا نتحدث عن أسبانيا أو البرتغال ، كتاب ما أو سباق الخيول ؛ ولكن لم يكن اهتمامنا الحقيقى يدور حول تلك المواضيع وإنما حول مشهد البنائين يعملون فوق سطح عال من خمسة قرون مضت . جاء الملوك والنبلاء بالكنوز فى أجولة كبيرة وسكبوها تحت الأرض . كان هذا المنظر يستعاد متكررا فى ذهنى ويموضع نفسه إلى جانب منظر آخر به بقرات عجاف وسوق موحلة وخضروات ذابلة وقلوب شيوخ بخلاء متليفة - وكانت تلك الصورتين ، على كل تشوشهما وتفككهما تتصارعان وهما يحضرانى سويا بلا رحمة . أن أفضل الطرق (إلا إذا رضينا لهذا الحديث كله أن يصبح مشوها) هو الكشف عما كان يدور فى ذهنى ، حيث - وبقليل من حسن الحظ - يصبح من الممكن أن تتبخر هذه الأفكار فى الهواء وتتلاشى مثلها مثل رأس الملك المتوفى حينما فتحوا الكفن فى ونسور ولم يجدوها . ولذا فقد تحدثت الآنسة سيتون باقتضاب عن البنائين الذين ظلوا طوال تلك السنوات فوق سطح الكنيسة الصغيرة ، وعن الملوك والملكات والنبلاء الذين حملوا الذهب والفضة فى أجولة على أكتافهم ثم كيف راحوا يدفنوها فى بطن الأرض ؛ ثم كيف جاء كبار الماليين فى عصرنا وألقوا بالشيكات المصرفية والسندات حيث وضع الآخرون سبائكهم وقطع الذهب الخشنة غير المصقولة . كل هذا كامن تحت تلك الكليات الأخرى . قلت : ولكن هنا فى هذه الكلية التي كنا فيها ، ماذا يوجد تحت الطوب الأحمر الكريم الشهم والحشائش غير المهذبة فى الحديقة ؟ أى قوى تكمن خلف أطباق الصينى البيضاء غير المزركشة التى أكلنا فيها طعامنا من برمة ؟ وهنا زرق من فمى قبل أن أستطيع حبس الكلمات : طعامنا من اللحم البقرى المتواضع والكاسترد والبرقوق الجاف ؟

جاوبتنى مارى سيتون : «حوالى عام ١٨٦٠ - ولكنك تعلمين هذه الحكاية» ضجرت مارى ، فيما ظننت ، بإعادة القصة . كما قالت لى : كانت الغرف هنا تؤجر ، والتقت اللجان وبعثوا بالخطابات ، ووزعت النشرات . عقدت اجتماعات وقرأت خطابات . فلان أو فلان وعد بهذا المبلغ أو ذاك ، أما السيد فلان فعلى العكس لن يتبرع بقرش . صحيفة «الساترداى زيفيو» كانت فى منتهى الوقاحة . كيف نجمع الأموال لندفعها فى إقامة

المكاتب ؟ وهل سندعو الناس إلى بازار ؟ وهل سنجلب فتاة جميلة للجلوس فى الصف الأول ؟ دعونا نراجع ما قال جون ستيوارت ميل فى الموضوع . قالوا : هل نستطيع إقناع رئيس تحرير تلك الصحيفة أو تلك أن ينشر لنا خطابًا مفتوحًا ؟ وهل من الممكن أن توقعه الليدى فلان ؟ الليدى فلان خارج المدينة فى الوقت الراهن . هكذا تم العمل ، منذ ستين عامًا وكان مجهودًا جبارًا واستغرق الكثير من الوقت . ولم يحصلوا إلا بعد صراع طويل وبصعوبة بالغة إلا على ثلاثين ألفا من الجنيهات . [1] وبالتالى فمن المنطقى ألا يكون لدينا نبيذ أو طيور حجلة وخدم يحملون الأطباق المعدنية الكبيرة فوق رؤوسهم ، قالت مارى سيتون . وليس فى مقدورنا أن نوفر لأنفسنا الكتب والغرف الخاصة . «على لطف الأجواء وهناء العيش الانتظار» قالت مارى مقتبسة كتاب ما . [2]

تخيلنا كل هؤلاء النساء يبذلن كل هذا الجهد سنة بعد سنة ويجدن صعوبة فى توفير ألفى جنيه ثم يبذلن كل الجهد لجمع ثلاثين ألفًا ؛ وانفجرنا نسخر من فقر جنسنا الذميم ، المستهجن . ما الذى كانت أمهاتنا تفعله إذن حتى أنهن لم يتركن لنا شيئًا ؟ كن يضعن البودرة على أنوفهن ؟ يقضين الوقت فى الفرجة على المحلات ؟ يتباهين فى غير خجل بالشمس فى مونت كارلو ؟ كانت هناك بعض الصور فوق المدفأة . صور لأم مارى - لو كانت بالفعل أم مارى - كانت الصورة لامرأة سفيهة لا تصلح لعمل شىء فى وقت فراغها ، (أنجبت ثلاثة عشر طفلا من راعٍ للكنيسة) ولكن ، لو كان الأمر كذلك فإن حياتها البهيجة التى قضتها فى المتعة لم تترك سوى أقل القليل من إمارات البهجة على وجهها . كانت امرأة ساذجة ، بسيطة . امرأة عجوز ترتدى شالا اسكتلنديا تشبكه بدبوس من حجر كريم به رسم نافر ؛ تجلس على كرسى من القش تشجع كلبا إسبانيوليا أن ينظر إلى الكاميرا ، وعلى وجهها تلك الابتسامة التى توحى بالرضا والاستمتاع بالموقف ، ومع هذا يشوب وجهها حس متوتر يشى بأنها تعلم أن الكلب لابد أن يتحرك عندما تضوى لمبة الكاميرا . أما لو أنها كانت قد أصبحت صاحبة مصنع للحرير الصناعى أو صارت أحد أقطاب البورصة ؛ لو أنها تركت مائتين أو ثلاثمائة ألف من الجنيهات لفارنهام ، لكنا فى الغالب نجلس مسترخين اليوم نتحدث فى الأركيولوجيا ، أو علم

---

(١) قيل لنا اطلبوا ثلاثين ألفًا على الأقل . وليس ذلك بالمبلغ الضخم إذا ما وضعنا فى الاعتبار أنه كان سيخصص لإقامة كلية هى الوحيدة من نوعها فى كل من بريطانيا العظمى وأيرلنده والمستعمرات ، وإذا تأملنا كذلك السهولة التى تجمع بها المبالغ الطائلة لمدارس الذكور . أما وباعتبار أن القلة القليلة من الناس هى من تود تعليمًا للنساء بالفعل . فالصفقة طيبة . (الليدى ستيفنسون ، إميلى ستيفن وجيرترون كولدج) .

(٢) كل سليم مما كان ممكن توفيره خصص للبناء ، وكان علينا تأجيل كل أشكال الرفاهية . (ستراتشى - القضية) .

النبات ، أو الأنثروبولوجيا ، أو الفيزياء ، طبيعة الذرة ، الرياضيات ، الفلك ، النسبية ، أو الجغرافيا . لو كانت مسز سيتون وأمها وأم أمها من قبلها تعلمن فن صناعة الثروة وكن تركن ثرواتهن ، مثلما فعل آبائهم وآباء آبائهم من قبلهم ، لتأسيس الكراسى العلمية والمنح الطلابية والجوائز الأكاديمية ، وتملكنها وخصصنها لبنات جنسهن ، لكان فى استطاعتنا أن نتناول عشاءً جيداً إلى حد بعيد فى هذا المكان مكونا من الطيور ولشربنا معًا زجاجة من النبيذ ؛ ولكان من المنطقى أن نأمل فى حياة لطيفة ومحترمة نقضيها فى ظل واحدة من المهن التى يصرف عليها بسخاء . ولكنا الآن نكتشف ونكتب ، نسيح فى الأماكن الجليلة من العالم ، نجلس متأملات على سلالم البارثنون ، أو نذهب إلى مكتب ما فى العاشرة ونعود إلى منازلنا فى الرابعة والنصف لنكتب قليلاً من الشعر . فقط لو كانت المسز سيتون قد دخلت مجال الأعمال وهى فى الخامسة عشرة ، لكان - ولكن كانت تلك هى العقبة فى تلك المحاجة - لو حدث هذا لما كان هناك ابنة لمسز سيتون اسمها ماري . سألت مارى رأيها . كانت الليلة الأكتوبرية تبدو من بين الستائر ، هادئة بديعة ، وأوراق الشجر الصفراء تعكس ضوء نجمة أو اثنتين . هل كانت مارى على استعداد أن تتخلى عن نصيبها من الذكريات (فقد كانوا عائلة سعيدة رغم عددهم الكبير) هل كانت مارى تتخلى عن الألعاب والمشاحنات فى اسكتلنده ، التى لا تتعب من التسبيح بنقاء جوها وجودة كعكها ، وذلك حتى تحوز فارنهام على خمسين ألفًا من الجنيهات بجرة قلم ؟ فوقف الأموال على كلية ما كان يتطلب قمع الأسرة تمامًا . أن يصنع المرء ثروة ويحمل ويضع ثلاثة عشر طفلا كذلك لفوق احتمال البشر . ولنتوقف لدى الحقائق . فى بداية الأمر هناك تسعة أشهر قبل مولد كل طفل . بعدها ثلاثة أو أربعة أشهر تقضى فى إرضاع الطفل . بعد أن يكون الطفل قد فطم من الرضاع تبقى ولا شك خمسة سنوات تقضى فى اللهو واللعب مع الطفل ، لأنه فيما يبدو لا يستطيع الناس ترك الأطفال تجرى فى الشوارع . ومن رأوهم يجرون فى الشوارع فى روسيا أكدوا لنا أنه ليس بالمنظر المستساغ . يقول الناس أيضًا أن الطبيعة الإنسانية تتشكل فى السنوات ما بين العام الأول والعام الخامس . فلو أن مسز سيتون - قلت لمارى - كانت تكسب الأموال ، أى نوع فى هذه الحالة ، من الذكريات سيكون لمارى عن اللعب والمشاحنات ؟ ما الذى كنت سوف تعرفينه من اسكتلنده وجوها النقى وجودة كعكها وما إلى ذلك ؟ ولكنه من العبث التساؤل عن مثل تلك الأمور لأنك لم يكن من الوارد أن تُمنَحى الحياة من الأصل . إضافة إلى ذلك فهو على القدر نفسه من عدم الجدوى أن نتسائل عما كان يحدث لو أن

مسز سيتون وأمها وأم أمها من قبلها كن قد جمعن ثروة عظيمة وضعنها تحت أساسات كلية ومكتبة ؟ وذلك لأنه بادىء ذى بدء لم يكن كسب المال ممكنا بالنسبة لهن ، وثانيا لو افترضنا أنه كان ممكنا فالقانون كان يحرمهن حق امتلاك الأموال التى كن سيكسبنها . فى الثمانية وأربعين عاماً الماضية فقط أصبح لمسز سيتون الحق فى الاحتفاظ بأموالها . أما فى كل القرون قبل ذلك كانت أموالها تئول لزوجها - وهو خاطر ربما لعب دوراً فى إبعاد مسز سيتون وأمها طوال ذلك الوقت من دخول البورصة . ربما قلن أن كل قرش يكسبنه سوف يؤخذ منهن ويصرف وفقاً لحكمة الزوج وربما رأى الزوج فى حكمته إهداء تلك الأموال لكلية باليول أوكينجز ، وبذا فإن كسب النقود حتى لو توفر لهن لم يكن ليهمهن كثيراً وكان من الأفضل تركه للزوج . وعلى كل حال وفيما إذا كان اللوم يقع على السيدة العجوز التى كانت تنظر إلى الكلب الإسبانيولى فى الصورة أم لا فما من شك أن أمهاتنا لسبب ما أسأن تنظيم أمورهن على نحو جدى . ولم يكن هناك قرش يمكن توفيره من أجل «المناعم» ومن أجل طيور الحجلة على العشاء والنبيذ والحراس والنجيل المعتنى به والسيجار ، والمكتبات ومتع أوقات الفراغ . إن أقصى ما كان فى وسعهم عمله هو تشييد الحيطان العارية فوق الأرض العارية . فوقفنا نتحدث بجانب النافذة نرنو كما يرنو الآلاف منّا كل ليلة ، إلى أسفل حيث قباب وأبراج المدينة الشهيرة تحتنا . كانت جميلة جداً وغامضة جداً فى ضوء القمر الخريفى . بدت الحجارة العتيقة بيضاء جداً وجليلة ومهيبة . ووجدتنى أفكر فى كل الكتب التى تحتويها تلك الجدران ؛ فى كل صور الأساقفة والأفاضل التى علقت على جدران الغرف المؤطرة بالخشب ؛ فى زجاج النوافذ الملون والذى يلقى بأشكاله من كرات وأهلة على الأرصفة ؛ فى الألواح والنصب التذكارية والنقوش ؛ فى النافورات والنجيل ؛ فى الغرف الهادئة عبر الميادين المربعة الصغيرة الساكنة. واعذرونى إذ إننى فكرت أيضاً فى دخان التبغ الذى يثير الإعجاب والمشروبات والمقاعد الوثيرة والسجاجيد الأنيقة : فى دماثة ورقة الطبع ، والأنس والدفء والجلال والوجاهة التى تنتج عن توفر المساحة والخصوصية ورغد العيش . من المؤكد أن أمهاتنا لم توفر لنا ما يشبه أيا من هذا - أمهاتنا اللواتى وجدن صعوبة فى تجميع ثلاثة آلاف من الجنيهات أمهاتنا اللواتى حملن فى ثلاثة عشر طفلا لرعاة الكنائس فى سانت أندروز .

وهكذا عدت إلى غرفتى فى الفندق الصغير ، أفكر فى هذا الأمر وذاك وأنا أقطع الشوارع المظلمة ، كما يفعل الناس بعد يوم من العمل . فكرت فى السبب فى أن مسز سيتون لم يكن لديها أموال نتركها لنا ؛ وأى تأثير للفقر يكون على الذهن ؛ وأى تأثير

للثراء عليه ؛ وفكرت فى غريبى الأطوار من الشيوخ ممن رأيتهم ذلك الصباح وذؤابات الفرو تزين مناكبهم ؛ وتذكرت كيف أنهم كانوا ينصاعون للنغمة نفسها حتى يخيل للمرء أنه لو صفر أحدهم لجرى آخر ؛ وفكرت فى دوى الأرغن بالكنيسة الصغيرة وفى أبواب المكتبة المغلقة ؛ وفكرت كم هو مؤذ أن توصد أبوابها دون المرء ؛ أو ما هو ربما أسوأ : أن يحبس المرء داخلها . ثم وأنا أتأمل الأمان الذى يغلف حياة جنس وازدهارها ، وفقر جنس وافتقاده الطمأنينة ، وفى تأثير التراث أو عدمه على عقل الكاتب ، فكرت فى نهاية الأمر أن الوقت قد حان لتنكيس سماء اليوم الذى شاخ بكل ما حمل من انطباعات ومحاجات وجدل ، وما حمل من ضحكات وغضب والإلقاء به إلى السياج النباتى الذى حوط النجيل . وعبر صحارى السماء الزرقاء كانت ألف نجمة تضوى . بدى لى أنى وحدى فى صحبة مجتمع لا تسبر أغواره ولا تخترق حجبه . كان الناس قد سكنوا للنوم – فى وضع أفقى ، على استعداد أبكم . وبدا أن شوارع أوكسبريدج خالية تماماً من الحركة . حتى باب الفندق فتح طواعية بلمسة يد خفية – لم يكن هناك وقع قدمين ينير لى الطريق إلى سريرى ، لقد كان الوقت متأخراً جداً .

- ٢ -

المشهد ، لو أذنتن لى أن أطلب منكن أن تتبعونى ، تبدل الآن . كانت أوراق الشجر لا تزال تسقط ، لكنها تسقط فى لندن الآن وليس فى أوكسبردج . علىّ أن أطلب منكن تخيل غرفة ، مثل آلاف الغرف ، لها نافذة تطل عبر قبعات الناس وعربات النقل الخفيفة والسيارات على نوافذ أخرى . وعلى المنضدة داخل الغرفة ، رقعة ورق بيضاء كتب عليها فى حروف كبيرة «النساء والكتابة» ، لا أكثر . كانت نتيجة تناول وجبتى الغداء والعشاء فى أوكسبريدج ، زيارة إلى المتحف البريطانى لا مناص منها للأسف [على المرء أن يعصر كل ما هو شخصى وعارض فى كل تلك الانطباعات وبذا يصل إلى السائل الخالص (زيت الحقيقة الجوهرى)]. فقد عجت زيارة أوكسبريدج والغداء والعشاء الذى تناولتهما هناك بالأسئلة . لماذا يشرب الرجال النبيذ وتشرب النساء الماء ؟ لماذا كانت أحوال أحد الجنسين مزدهرة موسرة وأحوال الجنس الآخر على هذا القدر من الفقر ؟ ما تأثير الفقر على الكتابة ؟ ما الشروط الضرورية لخلق الأعمال الإبداعية ؟ - قفزت أمامى مئات الأسئلة مرة واحدة . لكنى كنت فى حاجة إلى الإجابات لا إلى الأسئلة . والإجابة لا يحصل عليها إلا عن طريق استشارة العلماء وغير المتعصبين ممن نذروا بأنفسهم عن صراع الألسنة وتشويش الجسد وبثوا نتاج تفكيرهم وأبحاثهم كتبًا توجد فى مكتبة المتحف البريطانى . لو أن الحقيقة ليست على أرفف الكتب فى المتحف البريطانى - سألت نفسى ، وأنا ألتقط نوتة للكتابة وقلم رصاص - أين هى إذن ؟

أما وقد تزودت هكذا ، وكلى ثقة وتساؤل ، بدأت البحث عن الحقيقة . كان يومًا كئيبًا والسماء غائمة ، وإن لم يهطل المطر . وكانت الشوارع حول المتحف مليئة بحُفَر الفحم الحجرى المفتوحة ، وكانت الأجولة تنهال عليها والعربات ذوات الأربع عجلات تدنو وتنزل منها علب مربوطة بالحبال تحتوى ، فى أغلب الظن ، على ملابس عائلة إيطالية أو سويسرية باحثة عن الرزق أو الملاذ أو بضاعة مما توجد فى محلات «بلومسبيرى» فى الشتاء . الرجال بأصواتهم المخشوشنة يستعرضون بضاعتهم من

نباتات يحملونها فى العجلات التى تدفع باليد . كان بعضهم يزعق وآخرون يغنون . وبدت لى لندن وكأنها ورشة ، مثلها مثل الآلة . كنا جميعنا يدفع بنا إلى الأمام وإلى الوراء كى نصنع تشكيلا أو نمطا ما . ولم يكن المتحف البريطانى سوى قسم آخر من المصنع . انفتحت الأبواب المتأرجحة وتأرجحت مفتوحة ، فوجدتنى واقفة تحت القبة الكبيرة ، وكأنى فكرة رسمت على الجبهة العريضة فى الحائط تسيّج بفخامة شريط الجبس الذى يحوطه وقد كتبت عليه أسماء المشاهير . يذهب المرء إلى مكتب أمين المكتبة ، ويأخذ لنفسه رقعة ورق صغيرة ويفتح جزءاً من أجزاء الكتالوج ، و ..... تشير النقاط الخمس هنا إلى خمس دقائق من الذهول ، والدهشة والحيرة والارتباك . هل لديكن أدنى فكرة عن عدد الكتب التى تكتب عن النساء فى العام الواحد ؟ هل تعلمن كم من هذه الكتب يكتبها الرجال ؟ هل تعين أنكن ربما كنتن أكثر المخلوقات موضوعاً للنقاش فى الكون ؟ ها أنا ذا قد جئت بنوتة وقلم رصاص وفى نيتى أن أقضى الصباح فى القراءة . وقد تصورت أن بنهاية الصباح أكون قد نقلت الحقيقة إلى كراستى . ولكنه طرأ لى أنه حتى أتعامل مع كل هذا الكم من الكتابات ، كان على أن أكون قطيعاً من الفيلة وفلاة من العناكب ؛ أى أنه طرأت لى كل الحيوانات التى عرفت بطول العمر وكثرة الأعين . ولكنت أحتاج مخالب من الفولاذ ومنقاراً من النحاس كى أخترق القشرة الخارجية فقط . كيف يتسنى لى أبداً أن أجد حبات الحقيقة راسية ومثبتة فى كل هذه الكتل من الورق ؟ سألت نفسى وفى يأسى بدأت أجرى بعينى على القائمة الطويلة من العناوين . حتى أسماء الكتب كانت زودا للتفكير . إن الجنس وطبيعته قد يجذب الأطباء وعلماء البيولوجيا ؛ ولكن ما أدهشنى وكان صعب التفسير هو أن الجنس ، أى النساء ، يجذب كتاب المقال اللطاف ، والروائيين الخفاف ، والشبان الحاصلين على درجات الماجستير ؛ ورجالاً لم يحصلوا على شهادات على الإطلاق ، رجالاً لا يبدو أن لهم ما يزكيهم لهذا العمل سوى أنهم ليسوا نساء . كان أحد تلك الكتب فيما يبدو للوهلة الأولى خفيف وغير رزين وماكر فى تفكهه ، ولكن كان هناك العديد من الكتب الأخرى ، الجادة والتنبؤية، أخلاقية وتحريضية. توحى عنوانينها بالعديد من المدرسين ، والوعاظ وقد تمنطقوا كراسيهم ومنابرهم ثم يطيلون الحديث بزمن يفوق المقرر لهم بكثير فى هذا الموضوع وحده .

كانت ظاهرة فى منتهى الغرابة ؛ وفيما يبدو – وهنا كشفت عن حرف الراء – ظاهرة تنحصر فى جنس الذكورة . النساء لا يكتبن الكتب عن الرجال – وهى حقيقة لم أكن لأتقبلها – والحق يقال – إلا بالارتياح . فلو أنه كان لزاما على أن أقرأ كل ما كتبه الرجال عن النساء ثم بعد ذلك أقرأ كل ما كتبت النساء عن الرجال فلابد وأن زهرة

الصبار التى تزهر مرة كل مائة عام تكون قد أزهرت مرتين قبل أن أكون أنا بدأت الكتابة . وبذا عقدت النية على اختيار «دستة» تقريباً من المجلدات على نحو عشوائى ، وكتبت عناوينها على الورقة الصغيرة التى توفرها المكتبة لهذا الغرض ووضعت الورقة فى الصينية السلك التى يتلقون فيها طلبات الكتب ورجعت إلى طاولتى أنتظر ، وسط آخرين من الباحثين عن زيت الحقيقة الخالص .

ماذا عساه يكون السبب وراء عدم التكافؤ هذا ، المثير للعجب ؟ . تساءلت وأنا أتسلى برسم عربات يد بعجلتين على رقع الورق التى يوفرها دافع الضرائب البريطانى لهذا الغرض . ما الذى يجعل من النساء موضوعاً ، كما يشهد هذا الكتالوج ، أكثر إثارة لاهتمام الرجال ولا يجعل النساء تهتم بالرجال على النحو نفسه ؟ بدت لى تلك الحقيقة جد مثيرة للعجب ، ووجدتنى أسرح فى تصور حياة الرجال الذين يقضون وقتهم فى كتابة الكتب عن النساء ؛ سواء أكانوا متقدمين فى السن أو شباب ، متزوجين أو عزاب ، لهم أنوف حمراء أو مقوسى الظهر – على كل ، كان فى ذلك الاهتمام إطراء غامض بعض الشىء ، والإطراء مقبول ما دام من يثنى على أمر ما ليس معوقاً أو مريضاً – وهكذا جلست أتأمل إلى أن جاءت الكتب التى طلبتها وأدى انحدارها كالهيل على المكتب أمامى إلى إنهاء تأملاتى . وهنا بدأت المشكلات . أن الطالب الذى دربوه على البحث فى أوكسبردج له لا شك منهج فى توجيه أسئلته بعيداً عن مناطق الانزلاق التى تؤدى إلى تفريق الخاطر والتشتت حتى ينتهى بها إلى الإجابة التى كان يبغاها ؛ كما يسوس الراعى أغنامه حتى تظل الحظيرة فى أمان . الطالب الذى يجلس ، لينقل بإسهاب من كتيب علمىٍ – على سبيل المثال – كان ، أكاد أن أجزم ، يستخلص درراً من المعدن الخالص كل عشرة دقائق تقريباً .

كانت همهمات الرضا التى تصدر عنه دليلاً على هذا . ولكن ، وللأسف ، ولأن مثلى لم يتلق تدريباً مماثلاً فى الجامعة كانت أسئلتى أبعد ما تكون عن صورة الخراف التى تساق إلى الحظيرة ، بل كانت أقرب إلى قطيع مذعور يجرى هنا وهناك فى اختلاط واضطراب يلاحقها قطيع كامل من كلاب الصيد .

وكان يطارد سؤالى البسيط : لماذا تعانى بعض النساء من الفقر ؟ خيال عدد هائل من الأساتذة ، والمدرسين ، ورجال الدين والسوسيولوجيا ، وكتاب المقال

والروائيين والصحفيين ، رجال ليس لهم من مؤهل سوى أنهم ليسوا نساء - حتى صار سؤالى الوحيد خمسين سؤالا ، وحتى قفز الخمسون سؤالا مسعورين إلى منتصف النهر فحملهم النهر واختفوا على صفحته . كل صفحة من صفحات مفكرتى كانت مخرمشة بالملاحظات . وكى أبرهن لكنّ عن الحالة الذهنية التى كنت فيها سوف أقرأ عليكن بعضاً من تلك الملاحظات . مع العلم أن الصفحة تلك ذاتها كانت تحمل عنواناً بسيطاً هو : « النساء والفقر » فى حروف متفرقة واضحة ولكن ما تلاها كان شيئاً على هذا المنوال :

- الظروف فى القرون الوسطى (النساء) .
- العادات فى جزر فيجى (النساء) .
- عبادة الإلهات .
- أضعف من وجهة النظر الأخلاقية عن -
- مثالية (النساء) .
- (النساء) أكثر إخلاصا للعمل .
- سن البلوغ عند سكان جزر بحر الجنوب .
- جاذبية (النساء) .
- يقدمن كقرابين إلى -
- الحجم الصغير للمخ (والنساء) .
- اللاوعى الأعمق (للنساء) .
- قلة شعر الجسد لدى (النساء) .
- التدنى الجسدى والعقلى والأخلاقى (النساء)
- حبّ الأطفال لدى (النساء).
- عمر أكثر طولا (للنساء) .
- العضلات أضعف فى (النساء) .
- قوة العاطفة لدى (النساء) .
- العجب والزهو بالذات فى (النساء) .
- التعليم العالى (للنساء) .

- رأى شكسبير فى (النساء) .
- رأى دين إنچى فى (النساء) .
- رأى لابروبار فى (النساء) .
- رأى الدكتور جونسون فى (النساء) .
- رأى المستر أوسكار براوننج فى.....

وهنا أخذت نَفَساً وكتبت فى الهامش بالفعل سؤالا يقول : لماذا قال صمويل بطلر « إن الرجال الحكماء لا يدلون برأيهم فى النساء ؟» إن الرجال الحكماء فيما يبدو لايتحدثون عن شئ آخر . ولكنى أكملت الخاطر وقد استندت على ظهر مقعدى ورحت أحدق فى القبة الكبيرة التى صرت تحتها : أنا نفسى خاطر وحيد ومطارد إلى حد ما : إن ما يؤسف له هو أن الرجال الحكماء لا يتفقون على رأى فيما يخص النساء فها هو ألكسندر پوب :

معظم النساء ليست لديهن شخصية على الإطلاق .

وها هو لابروبير :

إن النساء متطرفات فهم إما أفضل أو أسوأ من الرجال .

تناقض تام بين اثنين من أنفذ الملاحظين وأحدّهم قريحة . وكانا متزامنين . هل فى مقدور النساء التعلم أم لا ؟ كان يعتقد نابليون أنه فى غير مقدورهن ذلك . أما الدكتور چونسون فكان يعتقد العكس[1] . هل للنساء أرواح أم لا ؟ يقول بعض البرابرة إنهم بلا أرواح . وآخرون على العكس يعتقدون أن النساء أنصاف آلهة ويعبدونهن على هذا الأساس[2] .

يعتقد بعض الحكماء أن النساء أضحل عقلاً بينما يقول آخرون أنهم أعمق وجداناً ووعياً . كرّمهن جوته ، أما موسولينى فاحتقرهن . ما من مكان أدرت فيه ناظرى إلا

---

(١) إذ يقول : « يعلم الرجال أن النساء أقوى منهم ولذا يقع اختيارهم على الأضعف بينهن أو الأكثر جهلاً . ولو لم يكونوا يفكرون بتلك الطريقة لما خافوا أن تعرف النساء بالقدر نفسه الذى يعرفونه هم » ... ومن العدل لهذا الجنس (يقول بوزيل ، كاتب سيرة د . جونسون) ، ومن الحق والصراحة أن أقول إنه (أى د . جونسون) ، قال لى فى حوارات لاحقة أنه كان جاداً فى هذه المقولة (بوزويل . يوميات رحلة إلى جزر الهبريديز) .

(٢) كان الألمان القدماء يعتقدون أن هناك ما هو مقدس فى النساء فكانوا يستشيرونهن فى النبوءة . انظر : فريزر ، الغصن الذهبى .

وجدت رجالاً فكروا وأدلوا بآرائهم فى النساء وكانت آراؤهم مختلفة . أخيراً قررت أنه من المستحيل أن أصل إلى نتيجة منطقية من كل هذا ، ورحت أنظر فى اتجاه القارىء الذى كان يجلس عن جانبى وكان يكتب ملخصات منتظمة رائعة تعلوها فى كثير من الأحيان الحروف الأبجدية « أ » أو « ب » أو « ج » فى حين ظهرت أوراقى أنا وكأنها مظاهرة من المخرفشات المتوحشة والملاحظات المتناقضة . وكان ذلك محيراً للذهن ومؤلماً للنفس ومهيناً . لقد تسربت الحقيقة من بين أصابعى وهربت آخر قطرة منها .

وتأملت الموقف . ووجدت أنه من المستحيل أن أعود إلى بيتى وقد أضفت إلى الإسهامات الجادة فى علاقة النساء بالكتابة والتأليف أن للنساء شعر أقل على أجسادهن من الرجال ، أو أن سن البلوغ بين سكان جزر بحر الجنوب هو التاسعة أم تراه التاسعة والتسعين ؟ – حتى خطى أصبح مشوشاً غير مقروء . كان من العار بعد صباح بطوله من العمل ألا يكون فى مقدورى أن أقدم ما هو أكثر احتراماً وعمقاً وثقلاً . ولو لم يكن فى مقدورى أن أمسك وأعى بالحقيقة فيما يخص « م » (*) (كما أصبحت أسميها من باب الاختصار) فى الماضى فلماذا الاهتمام بميم تلك فى المستقبل ؟ بدا لى أن استشارة كل هؤلاء الرجال المهذبين ممن تخصصوا فى « المرأة » وتأثيرها فى أياً ما كان من المجالات – السياسة ، المهايا والرواتب ، الأخلاق إنما هو مضيعة تامة للوقت – مهماً بلغ قدر علمهم ومهما بلغ عددهم .

فى وسع المرء أن يترك كتبهم دون أن يفتحها ولن ينقصه شىء .

ولكنى وجدتنى بلا وعى ، وأنا أتأمل الموضوع على هذا النحو ، أرسم رسماً ، فى يأسى وتلاشى عزيمتى بدا لى منه أننى أضع به خاتمة لعملى . وكان جارى فى القراءة يختم عمله هو الآخر . . كنت أرسم وجهاً وشكلاً . كان الوجه للبروفيسور فون × وهو مشغول بكتابة عمله الموسوعى الذى أسماه : « المرتبة العقلية والأخلاقية والفيزيائية الأدنى لجنس النساء » . وقد ظهر البروفيسور × فى صورتى رجلاً لا يمكن أن يكون جذاباً للنساء . كان ثقيل البنية وله فك سفلى عظيم وعينان جد صغيرتين وكان وجهه محمراً جداً . كانت تعبيرات وجهه تشى بشخص يرزح تحت وطأة عواطف من النوع الذى يجعله يغمد قلمه فى قلب الصفحة وكأنه يقتل حشرة ضارة . ولكنه حتى بعد أن يقتلها لا يشفه ذلك ؛ وكأن عليه أن يستمر فى قتلها ومع هذا يظل هناك داع ما للغضب والكدر . هل تكون زوجته هى مصدر تلك العاطفة ؟ سألت نفسى وأنا أنظر إلى الصورة : « هل كانت واقعة فى غرام ضابط من سلاح الفرسان ؟ وهل كان ضابط سلاح الفرسان أنيقاً ووسيماً » فى زيه المزين بفراء « الستراكان » ؟ هل ضحكت منه فتاة جميلة ، لو تبنينا نظرية فرويد ، فى مهده ؟ وفكرت أن البروفيسور ،

* فى الإنجليزية W ، وقد اخترت «م» اختصاراً لكلمة «امرأة» .

حتى فى مهده ما كان يمكن أن يكون طفلاً جذاباً . أياً ما كان السبب ، بدا البروفيسور فى رسمى غاضباً جداً وقبيحاً جداً وهو يكتب كتابه العظيم عن المرتبة العقلية والأخلاقية والفيزيائية الأدنى للنساء .

لقد كان رسم الصور طريقة عبثية لا طائل من ورائها ، إنهاء صباح كامل من العمل غير المنتج . ومع هذا كيف ننكر أن الحقائق الفارقة كثيرا ما تطفو إلى سطح الوعى ، فى لحظات العبث تلك ، وفى أحلامنا .

لقد أرانى ذلك التدريب البسيط المبدئى الذى لا يرقى إلى ما نسميه بالتحليل النفسى ، أن الرسم الذى رسمته لهذا البروفيسور الغاضب كان تحت تأثير الغضب . اختطف الغضب القلم منى وأنا أحلم . ولكن ما الذى كان يفعله الغضب فى هذا الموقع ؟ كان فى استطاعتى اقتفاء أثر الشغف والحيرة ، والدهشة والملل – كان فى استطاعتى تسمية كل تلك العواطف التى توالت على وجدانى خلال الصباح ؛ فهل كان ثعبان الغضب الأسود قابعاً تحتها طوال الوقت ؟ نعم ، كان الرسم يقول ، هو كذلك . وأحالنى ذلك الخاطر إلى كتاب بعينه ، وجملة بعينها أوقظت الشيطان ؛ شيطان الغضب . وكانت تلك الجملة عن المرتبة العقلية والأخلاقية والفيزيائية الأدنى للنساء . لما قرأتها قفز قلبى بين أضلعى والتهبت وجنتاى ، واحمر وجهى بالغضب . ولم يكن هناك شىء مدهش على نحو خاص فى كل هذا . فالمرء لا يحب أن يقال له إنه أدنى وعلى نحو طبيعى من رجل صغير – ونظرت إلى الطالب الذى كان يقرأ بجانبى – وكان يتنفس فى صوت مسموع ويرتدى ربطة عنق جاهزة ، ولم يكن قد حلق ذقنه من أسبوعين على الأقل .

« للمرء مناطق زهو وخيلاء حمقاء ولاشك . هى أشياء من صلب الطبيعة الإنسانية » ، قلت لنفسى . ورحت أرسم دوائر وعجلات فوق وجه البروفيسور الغاضب حتى بدا وكأنه أغصان شجيرة تشتعل ناراً أو شهاب حارق – على كل حال أصبح شكلاً لايشبه الإنسان من قريب أو بعيد .

لم يعد البروفيسور سوى رزالة وفضالة لشئ احترق فوق تل هامستيد ؛ وهكذا انقضى غضبى وقد بررته . ولكن بقى شئ من الفضول . كيف يفسر المرء غضب الأساتذة ؟ ولماذا كانوا غاضبين ؟ فحتى بعد تحليل الانطباعات التى تتركها وراءها تلك الكتب كان يظل هناك دائماً عنصر ساخن . واتخذ ذلك العنصر الساخن أشكالاً عدة :

أفصح عن نفسه فى السخرية ، فى شعور فائض عن الحد ، وفى الفضول ، وفى التأنيب . ولكن كان هناك عنصر آخر غير متعارف عليه بشكل مباشر فى كثير من

الأحيان . أسميته « الغضب » . ولكنه كان قد اختفى تحت السطح واختلط بشتى ألوان العواطف . لو حكمنا عليه من مظاهر تأثيره الغريبة لعرفنا أنه كان متخفياً ومعقداً ولم يكن غضباً بسيطاً وواضحاً .

ولكن أيًا كان السبب ، قلت لنفسى وأنا أتأمل تل الكتب على مكتب القراءة ، فهى بلا طائل ولا عائد لغرضى . كانت الكتب بلا قيمة علمية ، وإن كانت من الناحية الإنسانية مليئة بالإرشادات المملة ، ومثيرة للشغف كذلك ، وبها حقائق غريبة عن عادات سكان جزر فيجى . كانت كتباً مكتوبة على ضوء العاطفة الأحمر لا على ضوء الحقيقة الأبيض . ولذا كان لابد من إعادتها إلى المكتب المركزى (لأمين المكتبة) ومنه إلى النخروب الصغير حيث تخزن ضمن خلية النحل العظيمة التى تحفظ فيها الكتب . كان كل ما استعدته من عمل ذلك الصباح هو ما يخص تلك الحقيقة الوحيدة عن الغضب . كان الأساتذة – هكذا ضممتهم جميعاً فى كتلة واحدة – غاضبين . ولكن لماذا ؟ سألت نفسى وأنا أعيد الكتب ، وكررت ، لماذا ؟ وأنا أقف تحت الأعمدة بصحبة الحمام وقوارب التجديف الصغيرة التى تعود إلى ما قبل التاريخ ، لماذا هم غاضبون ؟ وما زلت أسأل نفسى هذا السؤال وأنا أبحث عن مكان لتناول الغداء . ما الطبيعة الحقيقية لما أسميته مؤقتاً « غضبهم » ؟ تساءلت وكان فى هذا السؤال أحزورة يكفى لحلها كل الوقت الذى كان سيستغرقه تقديم الطعام فى مطعم صغير فى مكان ما بالقرب من المتحف البريطانى . كان أحدهم قد فرغ من تناول غدائه وقد ترك وراءه على الكرسى نسخة من الطبعة المسائية لجريدة ، التقطتها ورحت أقرأ العناوين . بعرض الصفحة كان شريطاً من الأحرف الكبيرة يعلن عن شخص كسب كسباً كبيراً فى جنوب أفريقيا . أما الشرائط الأصغر حجماً فكانت عن وصول السيد أو ستن تشيمبرلاين* إلى جنيف . وعن ساطور للحم عثر عليه فى قبو وبه شعر آدمي . أما القاضى فلان فكان يُعلّق فى (الأحوال الشخصية) على قلة حياء النساء ووقاحتهن . وأخبار أخرى نثرت على بقية صفحات الجريدة : إحدى ممثلات السينما فى هوليود تم إنزالها من قمة عالية وظلت معلقة فى الهواء ، سوف يكون الجو مضبباً .

وخطر لى أن الزائر العابر لكوكبنا الذى قد يتسنى له تصفح تلك الجريدة لن يفوته ملاحظة ، حتى من مثل تلك الشهادات المتناثرة ، أن إنجلترا مجتمع أبوى . فما من أحد فى كامل عقله من الممكن أن يخفق فى التعرف على هيمنة « البروفيسور » فى كل هذا ! «البروفيسور» السطوة ، والمال والتأثير . هو صاحب الجريدة ومحررها

---

* وزير الخارجية الإنجليزى آنذاك ، الذى تخلى عن قيادة حزب المحافظين قبيل انتخابات ١٩٢٢ .

ومحققها . هو وزير الخارجية والقاضى وهو لاعب « الكريكيت » ؛ وصاحب اليخوت وخيول السباق . هو مدير الشركة التى تدفع مائتين فى المئة لحاملى أسهمها . وهو الذى ترك الملايين للمبرات الخيرية والكليات التى كان يحكمها بنفسه . وهو الذى علق ممثلة السينما ما بين الأرض والسماء ؛ وهو الذى سوف يقرر ما إذا كان الشعر الذى وجد على ساطور اللحم ، شعراً أدمياً أم لا ؟ وهو الذى سوف يطلق سراح المتهم أو يحكم عليه بالإعدام . وباستثناء الضباب بدا أنه يتحكم فى كل الأمور . ومع هذا كان غاضباً . كنت أعلم أنه غاضب ، عندما قرأت ما كتب عن النساء ، لا فيما كتب ولكن ، فيه هو نفسه . عندما يجادل الكاتب دون تدخل من عواطفه فهو يفكر فقط فى موضوع النقاش وبالتالى فإن القارىء لا يسعه إلا أن يفكر فى النقاش كذلك . فلو أنه كتب بذهن رائق دون تدخل من عواطفه عن النساء ، واستخدم الأدلة التى لا يرقى إليها شك فى تعضيد حججه ولم يظهر أى بادرة تدل أنه يتمنى للنتيجة أن تكون على شاكلة دون أخرى ، لما أصابنى الغضب أنا أيضاً . وكنت قبلت الحقائق كما يقبل المرء الحقيقة التى تقول بأن البازلاء خضراء أو أن الكناريا صفراء . ولكنت قلت : هو كذلك وليكن . ولكن الغضب أصابنى لأنه – هو – كان غاضباً . ومع هذا بدا لى وأنا أقلب الصحيفة المسائية ، أنه ضرب من العبث أن يكون لرجل كل تلك السطوة ويكون غاضباً . أم أن الغضب ، تساءلت ، قرين السطوة ؟ فالأغنياء على سبيل المثال كثيراً ما يغضبون لأنهم يشكون أن الفقراء يريدون الاستيلاء على أموالهم . وقد يكون الأساتذة البروفيسورات ، أو « الآباء » ، إذا أردنا تسميتهم بدقة ، غاضبين للسبب ذاته ، ومن الجائز أيضاً أنهم ليسوا غاضبين على الإطلاق ؛ بل إنهم كثيراً مابدوا مخلصين ونموذجيين فى علاقات الحياة الخاصة ، أو أن هناك سبباً آخر – لايظهر على السطح مباشرة . فمن الممكن أن الأستاذ عندما أصر بتأكيد أزيد عن اللازم قليلاً ، على المرتبة الأدنى للنساء ، لم يكن همه مرتبة النساء وإنما كان همه تفوقه هو ذاته . وكان هذا هو ما يدافع عنه بحمية ، وكثير من التأكيد . لأن تفوقه هذا يمثل له جوهرة نفيسة ذات قيمة فائقة .

إن الحياة لكلا الجنسين ، كما بدت لى وأنا أنظر إلى زوجين يخطوان على الرصيف – حياة شاقة ، صعبة ، جهاد مضنى ومستمر . حياة تتطلب قدراً عظيما من القوة والشجاعة . تتطلب ، وبما أننا أبناء الأهم ، أكثر ما تتطلب الثقة فى النفس . دون هذه الثقة نصبح كالرضع فى المهد . فكيف لنا أن نولد هذه الصفة ذات الثقل والوزن دون مضيعة للوقت ؟ تلك الصفة التى لا تقدر بثمن . هل يكون ذلك بالاعتقاد أن الآخرين أدنى منا ؟ بأن نشعر أننا نمتلك ميزة مطبوعة وأصيلة فينا ؟ قد تكون الثروة وقد تكون المكانة الاجتماعية ، قد تكون أنفاً مستقيماً أو صورة رسمها رومنى المصور

الشهير لأحد أجدادنا – فالقريحة الإنسانية لاتنضب فيما يخص مثل تلك الأمور التى يرثى لها – وتشعرنا بتفوقنا على الآخرين . ومن هنا ، ولهذا السبب ، يصبح من أهم الأمور بالنسبة « للأستاذ » أو رب العائلة والعشيرة أن يغزو ، ويحكم ، وأن يشعر أن عُدداً كبيرا من الناس يقعون فى مرتبة أدنى من مرتبته . لابد أن مثل ذلك الشعور من أهم الروافد التى تغذيه بشعور السطوة والسلطان . ولكن دعونى أعيد توجيه الضوء لنسقطه على الحياة الحقيقية ، قلت لنفسى . هل يفيد أن نشرح ونبرر بعض هذه الأحزورات النفسية التى نلحظها على هامش الحياة اليومية ؟ هل من الممكن أن يبرر الدهشة التى أصابتنى عندما قرأ أحدهم ، وهو رجل فى منتهى الإنسانية ، فقرة من كتاب لربيكا وست ثم صاح :

« إنها تقول إن الرجال متعاظمين ، يالها من نسوية متطرفة ! »

وكانت صيحته مدهشة بالنسبة لى – فما الذى يجعل من الآنسة ربيكا وست « نسوية متطرفة » إذا علقت تعليقاً لا يجامل الجنس الآخر ؟ أن ما أدهشنى فى صيحته تلك لم يكن فقط حس الزهو ، وقد أصيب بجرح ما ، ولكن ما بدا لى أنه اعتراض قوى على تعد أصاب ، فيما أتخيل ، ثقة ذلك الرجل فى نفسه .

لقد قامت النساء طيلة الوقت وعبر قرون من الزمن بوظيفة المرآة العاكسة ، لكنها مرآة تمتلك قوى سحرية لذيذة ، تعكس صورة الرجل مضاعفة عن حجمها الطبيعى . دون تلك القوى ربما ظلت الأرض غابة تملؤها المستنقعات ؛ ولظلت أمجاد كل حروبنا فى طىّ الغيب . ولكنا الآن لم نزل نخدش بقايا عظام الخراف نرسم عليها الظباء ونقايض حجر القداح بفرو الخراف ، أو ما شابه ، وفقاً لذوق بدائى لم يتثقف . ولما وجد « سوبرمان » ولا « أصابع القهر » ولما وضع القيصر ولا الكايزر التيجان على رؤوسهم ولما خسروها أيضاً . إن المرايا مهما كانت استعمالاتها فى المجتمعات المتحضرة تظل جوهرية بالنسبة لكل أفعال البطولة والعنف .

ومن هنا جاء تأكيد كل من نابليون وموسولينى على دونية النساء ، وذلك لأنهم لابد أدركوا أنهم لا يتميزون ولا يكبرون ، وأنهم يتوقفون عند حجم معين لو لم تكن النساء أدنى وأقل .

وقد يفسر ذلك جزئياً ضرورة النساء للرجال . كما يفسر انزعاج الرجال وتململهم فى حالة نقد النساء لهم ، وكيف أنه من المستحيل أن تقول لهم امرأة أنها وجدت كتاباً كتبوه سيئاً أو تقول عن صورة رسموها إنها ضعيفة ، أو أياً ما كان ، دون أن تتسبب فى ألم أعمق بكثير ودون أن توجج غضباً أكثر بكثير عما إذا كان رجلاً هو الذى قدم

النقد ذاته . فلو أن امرأة بدأت بقول الحقيقة لترتب على ذلك أن تنكمش صورة الرجل فى المرآة ولانتقص ذلك من لياقته مدى الحياة . كيف يتسنى له بعدها أن يستمر فى إصدار الأحكام ، وتهذيب البرابرة ، ووضع القوانين ، وكتابة الكتب . والتفاخر بملابسه ، وإلقاء الخطب فى الحفلات والمآدب إلا إذا كان فى استطاعته رؤية نفسه على الإفطار كل صباح وكل مساء عند العشاء ، أكبر من حجمه الحقيقى مرتين على الأقل ؟ هكذا تأملت الأمور وأنا أكسر الخبز وأقلب قهوتى وأتطلع من حين لآخر إلى الناس فى الشارع . إن الرؤية المعتمدة على المرآة فى غاية الأهمية لأنها تشحذ الحيوية ، وتنشط الجهاز العصبى . لو أننا حرمناه منها لربما مات الرجل مثله مثل مدمن المخدرات إذا ما حرمناه من الكوكايين . أنظر من النافذة ، أرقب الناس ؛ وتراءى لى أن نصف البشر يذهبون إلى أعمالهم تحت وطأة سحر ذلك الوهم ، يرتدون قبعاتهم ومعاطفهم فى الصباح وقد غلفهم ذلك الوهم فى أشعته اللطيفة ؛ إنهم يبدأون يومهم واثقين ، مدعمين وأقوياء ومتأكدين أن وجودهم مرغوب فى حفل الشاى الذى ستقيمة الآنسة سميث ، ويقولون لأنفسهم عندما يدخلون (غرفة جلوسها) إنهم أفضل وأكثر امتيازاً من نصف الموجودين (فى الحفل) وهكذا فهم يتحدثون من واقع تلك الثقة فى النفس والاعتزاز بها ، مما كان له أعمق الأثر فى الحياة العامة ومما أدى بى إلى تلك الملاحظات الغريبة على هامش الذهن .

ولكن تلك الإسهامات الخطيرة والمثيرة الفاتنة ، فى موضوع سيكولوجية الجنس الآخر ، وهى ما أمل أن تتحرونه عندما يصبح لكل واحدة منكن دخل لايقل عن خمسمائة جنيه فى السنة تخصكن وحدكن – وهنا اضطررت للتوقف لدفع الحساب . كان إجمالى الحساب خمسة شلنات وتسع بنسات . أعطيت النادل ورقة بعشرة شلنات وذهب ليحضر الباقى . كانت هناك ورقة بعشرة شلنات أخرى فى محفظتى ولاحظتها ، لأن قدرة محفظتى على توليد أوراق العشرة شلنات أوتوماتيكياً ما زالت تصيبنى بالدهشة الشديدة . أفتح حافظتى وأجد أوراق البنكنوت . فالمجتمع يوفر لى الفراخ والقهوة ، ومكاناً للمبيت وسريراً فى مقابل عدد بعينه من الأوراق المالية التى تركتها لى عمة ، لا لسبب غير أنى أشاركها اسم العائلة نفسه .

عمتى ، مارى بيتون ، علىّ أن أقُل لكن ، ماتت بعد أن وقعت من على ظهر الحصان وقد خرجت تتريض فى بومباى . ووصلتنى أنباء التركة ذات ليلة وفى الوقت ذاته تقريباً الذى صدر فيه القانون الذى سمح للنساء بالإدلاء بأصواتهن فى الانتخابات . وقع خطاب من المحامى فى صندوق بريدى وعندما فتحته وجدت أنها قد تركت لى خمسمائة جنيه فى السنة مدى الحياة . وما بين حق التصويت فى الانتخابات والمال ، بدا المال الذى امتلكته بوفاة عمتى أهم بكثير . فقبل ذلك كنت أرتزق من العمل

فى وظائف متباينة ، غير ثابتة ، فى الجرائد والصحف . كأن أكتب عن حمار فى مسابقة (لأجمل وأفضل الحيوانات) هنا ، أو عن فرح (أقيم هناك) ؛ وقد كسبت عيشى أحياناً بكتابة العناوين على الأظرف والخطابات ، وبالقراءة لسيدات مسنات ، وبصناعة الورود الصناعية ، وتعليم الأبجدية لأطفال الحضانة . كانت تلك هى الأعمال الرئيسية المتاحة للنساء قبل عام ١٩١٨ . ولست فى حاجة ، وللأسف ، أن أصف لكن بالتفصيل صعوبة العمل ، فأنتن تعرفن نساء قمن بمثله . كما أننى لست فى حاجة إلى الكلام عن صعوبة العيش على تلك الرواتب بعد كسبها ، فقد جربتن ذلك أغلب الظن . إنما ما يتبقى معى حتى هذه اللحظة ، وبوصفه مصيبة أفظع من تلك الصعوبات ، فهو سم الخوف والمرارة التى ربتّها فى ، تلك الأيام .

بادئ ذى بدء ، كان على القيام بأعمال لم أكن أرغب فى القيام بها ، ومع ذلك علىّ أن أقوم بها مثل العبد ؛ أحامل هذا وأداهن ذاك ، وهو ما لم يكن مطلوباً أو ضرورياً ربما ، ولكنه بدا ضرورياً وكان الأمر لا يحتمل المخاطرة . ثم تذكرت تلك الهدية التى تركتها عمتى - هدية صغيرة ولكنها عزيزة - لو أنها تلفت لتلفت معها روحى . كان كل هذا مثل الصدأ يأكل براعم الربيع فى نفسى ويقضى على شجرة (الأمل) فى جذورها . ثم كان أن ماتت عمتى كما قلت ، وكلما صُرفت ورقة بعشرة شلنات انمحى أثر الصدأ والتآكل قليلاً وذهب بعض الخوف ومعه المرارة . وأحسست كم هو مدهش - وأنا أضع العملة الفضية فى محفظتى وأتذكر مرارة تلك الأيام ، التغير فى المزاج الذى يحدثه الدخل المضمون . وأنه مامن قوة فى العالم تستطيع أن تسلبنى تلك الجنيهات الخمسيانة .

لقد توفر لى المسكن والأكل والملبس إلى الأبد . وبذا انتهى الجهد الرتيب والعمل الشاق ، وأيضاً انتفت الكراهية والمرارة . الآن لست فى حاجة إلى كراهية أى رجل ، فما من رجل يستطيع إيذائى . كما أننى لست فى حاجة إلى مداهنة أى رجل ، فما من رجل لديه ما يمن به علىّ . وبذا ودون أن أشعر وجدتنى أتبنى موقفاً جديداً تجاه نصف الجنس الإنسانى الآخر . إنه لمن العبث إلقاء اللوم على طبقة أو جنس بأسره ؛ فقطاعات الناس ومجموعاتهم الكبيرة ليست مسئولة عما تفعل أبداً . إنما توجههم الغريزة التى ليس فى مقدروهم التحكم فيها . فهم أيضاً « أساتذة » و « الآباء » يواجهون صعوبات لا تنتهى ، وعليهم التغلب على الكثير من العوائق وكان تعليمهم فى بعض مناحيه معيباً ومنقوصاً بقدر ما كان تعليمنا ، بل ربّ لديهم من

العيوب ما رباه تعليمنا فينا ، وبالقدر نفسه . صحيح أن المال والسطوة لهم ، ولكن ثمن ذلك كان (فادحاً) وكان أنهم أوا في صدورهم نسراً جارحاً يمزق أكبادهم ويقتلع وينتف رئتيهم – غريزة التملك ، وهوس الاستحواذ الذى يسوقهم إلى الرغبة (المحمومة) لامتلاك ما يملكه الآخرون باستمرار ؛ الرغبة فى أن يضعوا الحدود ويرسوا الأعلام والبيارق ؛ ويصنعوا المراكب الحربية والغازات السامة وأن يضحوا بحياتهم وحياة أولادهم فى سبيل (التملك والامتلاك) .

تأملوا نوع المجد الذى يحتفى به فى أى موقع خصص لعرض المدافع والنياشين وليكن قوس البحرية (الذى قد بلغته فى تجوالى) . أو راقبوا تحت أشعة شمس الربيع رجال البورصة والمحامين العظام يدخلون مبانيهم لصناعة المزيد من النقود والمزيد والمزيد ، فى حين أن خمسمائة جنيه فى السنة تكفى المرء للحياة تحت أشعة الشمس . يالها من غرائز غير مستحبة ، لكنها تربى فى ظل ظروف الحياة وفى غياب الحضارة ، فيما يبدو . قلت لنفسى وأنا أتأمل تمثال دوق كمبردج ، وبالذات وأنا أتأمل الريش الذى كان يزين قبعته على نحو دائم وهو ما كان ممكنا قبل (تجميدها) فى هذا التمثال .

وفى حين كنت أذكر نفسى بكل تلك العوائق ، تحول الخوف والمرارة بالتدريج إلى تسامح وشفقة . بعد ذلك بسنة أو اثنتين ذهبت الشفقة والتسامح وجاء الانعتاق الأكبر ألا وهو حرية أن يتفكر المرء فى الأشياء كما هى فحسب . هذا المبنى على سبيل المثال ، هل يعجبنى أم لا ؟ هل هذه الصورة جميلة أم لا ؟ وهل هذا فى رأيى كتاب جيد أم سئ ؟ الحق يقال لقد كشفت لى تركة عمتى السماء لى ، واستبدلت بصورة السيد المهذب ذى الهيبة التى نصح بها ميلتون* ووصانى بتأملها دائماً ، استبدلت بها السماء المفتوحة .

وهكذا ، متفكرة ، متأملة ، إقتفيت طريق العودة إلى بيتى بحذاء النهر . كانت المصابيح تضاء ، وتحول وجه لندن عما كان عليه فى الصباح تحولاً يصعب على الوصف .

وكان الآلة العظيمة بعد عمل شاق دام اليوم بطوله قد صنعت بمساعدتنا بضعة ياردات من شئ مثير جداً وجميل للغاية – قطعة من قماش أشهب يبرق بعيون حمراء ، وحش أشقر يزأر بأنفاس ساخنة . حتى الريح بدت مشرعة كالبيرق وهى تجلد البيوت وتقعقع على الحظائر والحواجز . ولكن ، فى شارعى الصغير كانت الألفة الوديعة تسود .

---

* جون ميلتون ، الشاعر الإنجليزى صاحب الفردوس المفقود .

و« المبيّض » ينزل من على سلمه (بعد انتهاء العمل) والمربية تدفع أمامها بحرص عربة الطفل الصغير عائدة به إلى وجبة المساء فى غرفة الحضانة ؛ ومورّد الفحم للمنازل كان يرفع أكياسه الفارغة ويطويها الواحد فوق الآخر ، وكانت بائعة الخضار تعدّ مكسب يومها ويداها فى قفاز دون أصابع . ولكنى كنت منهمكة تماماً فى المشكلة التى ألقيتموها على كاهلى حتى إنى لم أستطع مشاهدة تلك المناظر العادية المتكررة دون أن أربطها بمركز واحد، لفكرة واحدة .

وجدتنى أتسائل : هل اليوم أصعب عما كان قبل مائة عام ؟ هل يقول المرء عن إحدى تلك الوظائف (التى كنت أشاهد أولئك القوم يقومون بها) إنها أرفع قيمة أو أكثر ضرورة . هل من الأفضل أن يكون المرء جالباً للفحم أم مربية للأطفال ؟ وهل الخادمة التى ربت ثمانية أطفال أقل قيمة وفائدة للعالم من المحامى الذى كسب مائة ألف جنيه ؟ إن طرح مثل تلك الأسئلة لا جدوى منه ، فهى أسئلة لا يقدر على إجابتها أحد . فالقيمة التناسبية بين الخادمة والمحامى ترتفع وتنخفض من حقبة لحقبة ، وتنقصنا فى اللحظة الراهنة وسيلة لقياسهما حتى . لقد كان من الحمق أن أتوقع من « الأساتذة » أن يمدونى « ببراهين لا تناقش » عن هذه النقطة أو تلك من خلال طرحهم لموضوع النساء . فحتى لو كان فى مقدورنا أن نقيم موهبة ما فى اللحظة الراهنة حق قيمتها فإن تلك القيمة لن تثبت وسوف تتبدل . وفى خلال مائة عام تكون قد تبدلت تماماً . أضف إلى ذلك أنه فى خلال مائة عام لن تكون النساء جنساً يجب حمايته . فمن المنطقى أنهن سوف يمارسن كل الأنشطة والأعمال التى حرموا منها من قبل . وسوف ترفع المربية الفحم ، وتقود بائعة الخضار الجرار . وسوف تختفى كل الفرضيات التى أقيمت على شواهد بعينها عندما كانت النساء - على سبيل المثال - جنساً لازم الحماية - وفى تلك اللحظة ظهرت فرقة من الجنود تسير بانتظام - الفرضيات التى تقول إن النساء ورجال الدين والبستانية يعيشون أطول من بقية الناس .

لو أننا رفعنا عنهن الحماية ، وعرّضناهن للمشاق نفسها والأنشطة ذاتها ، وجعلنا منهن جنوداً وبحّارة وسائقى جرارات وعمال مؤانى ، ألن يمتن أصغر وأسرع من الرجال ؟ ويتسنى لنا وقتها القول : « لقد رأيت امرأة اليوم ، كما نقول ، رأيت طائرة تحلق »

ووجدتنى أفكر : عندما تكف الأنثى عن الانشغال بأنوثتها ، وعندما يكف الآخرون عن حماية هذا الانشغال ، يصبح من الممكن أن يحدث أى شىء . وفتحت الباب ، وسألت نفسى وأنا أدخل البيت : ولكن ما لكل هذا وموضوع ورقتى ، الناس وألكتابة ؟

- ٣ -

كان محبطاً أن يحل المساء دون أن أكون قد عثرت على مقولة هامة أو حقيقة أصيلة : وأكون إكتشفت مثلا أن النساء أفقر من الرجال لهذا السبب أو ذاك . ربما كان من الأفضل الآن التخلى عن البحث عن الحقيقة فما هى إلا كرة من الثلج يتضاعف همم باستمرار أثناء سقوطها ، يتلقاها المرء فوق رأسه فى صورة آراء كأنها حمم بركانية وأنهار من مياه آسنة .

ربما كان من الأفضل سحب الستائر وإغلاق أسباب تشتيت الذهن ، وأن نضئ المصباح ، ونضيق من مجال البحث ونسأل المؤرخ الذى يدون الحقائق ، لا الآراء ، أن يصف لنا الظروف التى عاشت تحتها النساء ، لافى العصور المختلفة ولكن ، فى إنجلترا مثلاً خلال عهد الملكة إليزابيث الأولى .

لأنه أمر مستغلق ولغز أزلى ألا تكون امرأة كتبت كلمة واحدة من الأدب فى ذلك العصر الذى أفرز أدباً فوق العادة ، وبدا أن ما من رجل عاشه إلا وكان فى مقدوره كتابة أغنية أو قصيدة .

ما الظروف التى عاشت تحتها النساء آنذاك ؟ سألت نفسى : وذلك لأن التأليف بمعنى العمل الإبداعى ليس حصاة تلقى على الأرض ، مثل العلم ربما ؛ إنما العمل الإبداعى مثله مثل خيوط العنكبوت ؛ قد يكون اتصاله بالحياة بخفة متناهية ولكنه متصل بها من كل ركن من أركانه الأربعة ، وقد يكون اتصاله بالكاد محسوساً ؛ فمسرحيات شكسبير على سبيل المثال تبدو وكأنها كاملة متكاملة فى نفسها ولكنا إذا جذبنا الخيوط عن جنب ورفعناها إلى أعلى ومزقناها فى المنتصف لتبين لنا أن تلك الخيوط العنكبوتية لم تغزلها مخلوقات بلا أجسام وتركتها معلقة فى الهواء ، وإنما هى من عمل بشر : تألموا وكانوا يرتبطون بأشياء مادية ملموسة مثل الصحة والمال والبيوت التى نحيا فيها . ولذا فإنى ذهبت إلى أرفف الكتب حيث كتب التاريخ ومددت يدى إلى أخر ما كتب منها وكان كتاب البروفيسور ترافيلون « تاريخ إنجلترا » ومرة أخرى تطلعت فى الفهرس ونظرت تحت عنوان « النساء » ووجدت العنوان ملحقاً بلفظ « ظروف » وقلبت الصفحات ووجدت غايتى : « ضرب الزوجات » ، وقرأت :

« كان حقاً معترفاً به للرجال ، وكان يمارس بلا تحفظ أو خجل فى جميع الطبقات على اختلافها .. وكذلك » ، ويكمل المؤرخ « الابنة التى كانت ترفض الزواج من رجل اختاره لها أبواها ، كانت تحبس ، وتضرب وتعامل بعنف دون أن يكون فى ذلك أى شئ يصدم الشعور العام . ولم يكن الزواج مسألة تتعلق بالعواطف الشخصية وإنما بالمال وحبه ، وبالذات لدى الطبقات الأعلى التى تدعى شرف «الفروسية» .... وكانت الخطبة تعقد فى كثير من الأحيان وأحد طرفيها أو كليهما مازالا فى المهد ، كما كانت الزيجات تتم والزوجان يكادان أن يكونا أطفالاً » . كان ذلك نحو عام ١٤٧٠ وهو تاريخ لاحق لعصرٍ تشوصر مباشرة . وكانت الإشارة التى تلت تلك عن ظروف النساء فى عصر ملوك ستيوارت أى بعدها بمئتى عام تقريباً تقول : « ما زال استثناء أن تختار النساء فى الطبقات الوسطى والعليا أزواجهن . وعندما كان يعين للفتاة زوجاً كان هو السيد الآمر الناهى فى ظل ما كان يسمح به العرف والقانون على الأقل . لكن حتى والأمر هكذا » ، يقول البروفيسور تراڤيلون « فلا نساء شكسبير ولا النساء اللواتى يظهرن فى المذكرات واليوميات التى وصلتنا من القرن السابع عشر (مثل نساء عائلات فيرلى وهاتشنسون) كانت تنقصهم قوة الشخصية » .

فبالتأكيد ، لو أننا تأملنا هذه المقولة لوجدنا أن كليوباترة لابد أنها امرأة لاتعدم الوسيلة ؛ وكانت ليدى ماكبث ذات إرادة قوية ومستقلة وكذلك فيدرا وكرسيدا وروزالند وديدمونة وبوقة مالفى ، هذا فيما يخص الدراما أما فيما يخص كتاب النثر فلدينا : ميلامانت وكلاريسا ، وبيكى شارب وآنا كارنينا وإيما بوڤارى ومدام دى جيورمانت – إن الذهن ليزدحم بأسمائهن وليس بينهن من تنقصها « قوة الشخصية والعزيمة » . والحق يقال : إن النساء لو لم يكن لهن وجود سوى فى الأعمال الإبداعية الدرامية والروائية التى كتبها الرجال لظننا أن المرأة فى غاية الأهمية ؛ فهى تظهر فى مظاهر البطولة والدهاء واللؤم والبهاء والخسة ، متناهية الجمال ومتناهية القبح ، فى عظمة الرجال بل إن بعضهم يضعها ، فى مرتبة أعظم [1] .

(١) « يظل أمراً مستغرباً وغير مبرر أنه فى مدينة أثينا كانت النساء فى وضع أقرب إلى أوضاع القمع الشرقية ؛ يعاملن بقسوة بوصفهن خادمات أومحظيات ومع هذا تنتج الدراما شخوصاً مثل كلايتمنسترا وكاسندرا اتوسا وأنتيجون وفيدرا وميديا وكل البطلات الأخريات اللواتى يهيمن على مسرحية تلو المسرحية من أعمال يوريبيدس « كاره النساء » ولم يتم تبرير أو شرح ذلك التناقض على نحو شاف . ففى الحياة كانت النساء المحترمات بالكاد يظهرن فى الشوارع أو يظهرن وجوههن ، وفى المسرح كن أنداداً للرجال بل قد يتفوقن عليهم .

وفى الدراما الحديثة نجد الشئ نفسه . ففى كل الأحوال وبالقاء نظرة سريعة على أعمال شكسبير (وكذلك وبيستر ؛ وإن لم ينطبق الأمر على مارلو وجونسون) يستمر تصوير النساء بوصفهن مبادرات من روزاليند وحتى ليدى ماكبث وكذلك لدى راسين ؛ فتحمل ستة من تراجيدياته اسماء بطلاتها ولا نستطيع مقارنة أبطاله من الرجال بهرْميون أو أندروماكى أو بيرينيس أو روكسانى ، أو فيدرا أو اتالى . وكذلك الأمر مع إبسن ، أى رجل يرقى أن يكون نداً لسلوڤييج أو نورا أو هيدا أو هيلدا وإنجل . وكذلك ربيكا وست ؟ »

ف . ل . لوكاس « التراجيديا »

ص ١١٤ – ١١٥

ولكن ، يظل هذا الوضع داخل حدود الأعمال الإبداعية (التأليفية) . أما فى الواقع يؤكد لنا البروفيسور تراڤاليون : كانت المرأة تحبس وتضرب « ويلقى بها فى قسوة على أرضية الغرف » .

وبذا يبرز إلى الوجود كائن مركب : فى حيز الإبداع هى كائن غاية فى الأهمية أما فى الواقع العملى فلا أهمية لها على الاطلاق . الشعر يعج بها من الجلدة للجلدة ولكنها تكاد تكون لاوجود لها فى التاريخ . إنها تهيمن على حيوات الملوك والغزاة فى الروايات والمسرحيات وفى الواقع كانت أمة لأى صبى أجبرها أبواها على أن تضع خاتم الزواج منه فى إصبعها . إن بعضاً من أكثر الكلمات إلهاماً ومن أعمق الأفكار فى الأدب تخرج من بين شفتيها ؛ ولكنها فى واقع الأمر كانت بالكاد تقرأ ونادراً ما تستطيع التهجى وكانت ملكاً لزوجها .

كان وحشاً غريباً ذلك الذى يظهر للمرء بعد أن يكون قد قرأ المؤرخين أولا ، وتبعهم بقراءة الشعراء ؛ دودة لها أجنحة النسر ؛ روح الحياة والجمال قابعة فى المطبخ تقطع الباذنجان . ولكن تلك الوحوش مهما كانت مثيرة للخيال ، ليس لها وجود فى الواقع . وما على المرء حتى ينفخ فيها الحياة سوى أن يفكر على نحو شاعرى وعملى فى ذات الوقت ، وهكذا يستطيع أن يظل متصلاً بالواقع . هى مسز مارتن وعمرها ستة وثلاثين عاماً ترتدى ملابس كحلية وقبعة سوداء وحذاءً بنيًا ولكنها - طبقا لمظاهرها فى الأعمال الابداعية - موضع كل القوى والعواطف التى تتأجج على نحو أزلى .

ولكن فى اللحظة التى يحاول فيها المرء انتهاج هذا المنهج مع المرأة الإليزابيثية نفقد فرعاً من فروع التوضيح والإنارة . فالحقائق ضئيلة ويعوقنا ذلك (أيما إعاقة) . فلا نتعرف على أى شئ على نحو مفصل ولا نتأكد تماماً من أنه شئ حقيقى وواضح وملموس . التاريخ بالكاد يذكرها . وتوجهت إلى البروفيسور تراڤليون عساى أفهم ما يعنى التاريخ بالنسبة له ، وتصفحت عناوين الفصول فى كتابه ، ووجدت أن التاريخ بالنسبة له يعنى : « بلاط الأعيان فى الريف ووسائل الزراعة .... تربية الخراف ووسائل ضغط المياه فى الصهاريج ... الحروب الصليبية ... مجلس النواب ... حرب المائة عام .... حرب الورود .... علماء وأساتذة عصر النهضة ... تصفية الأديرة ... الصراع الدينى والزراعى ..... منشأ القوة البحرية الإنجليزية ..... الأسطول الأسبانى (الأرمادا) وهكذا وهكذا . من حين لآخر يظهر اسم امرأة بعينها : إليزابيث أو مارى أو سيدة عظيمة ما . ولكن لا تظهر امرأة واحدة من الطبقة الوسطى لها عقل راجح أو شخصية قوية وقد أسهمت فى الحركات الكبرى (أى ما يؤلف رؤية المؤرخ عن الماضى) . كما أننا لن نجد مثل تلك المرأة فى أى مجموعة للأخبار . وهى لا تكتب سيرتها الذاتية كما أن « أوبرى » لا يشير إليها فى كل ماكتب ، كما أنها هى ذاتها لا تكتب يومياتها وما تبقى لنا منها لا يتعدى حفنة خطابات . لم تترك مسرحيات أو أشعاراً نستطيع الحكم عليها من خلالها . إن ما نحن فى أمس الحاجة له - فكرت - هو كم من المعلومات عن تلك المرأة ، ولم لا يجمعها طالب فى نيونهام أو فى جيرتون ؟ معلومات عن سن زواجها وعدد أولادها وكيف كان بيتها وهل كان لها غرفة تخصها ؟

هل كانت تقوم بطهى الطعام بنفسها ؟ هل كان من الاعتيادى أن يكون لها خادمة ؟ إن كل تلك المعلومات تقبع فى مكان ما ربما كان سجل الأبرشيات وأرشيفات الحسابات ؛ حياة المرأة الإليزابيثية المتوسطة ، متناثراً فهل فى إمكان المرء أن يجمعه ويجعل منه كتاباً .

هذا عمل أطمح من اجترائى ، فكرت وأنا أتطلع إلى أرفف الكتب ، أستطلع كتباً ليست موجودة عليها ، حتى يتسنى لى اقتراح الأفكار لطلاب كل تلك الكليات الشهيرة ، وكيف عليهم إعادة كتابة التاريخ حتى ، مع اعترافى أنه يبدو غريباً على بعض الشىء ، وغير واقعى ولا حقيقى ومعكوس ، ولكن لم لا ؟ لم لا يضيف هؤلاء ملحقاً ما للتاريخ يسمونه بالطبع اسماً متوارياً حتى تظهر النساء فيه دون أن يكون فى ذلك إخلال بالاحترام . فكثيراً ما يلحظهن المرء فى حياة العظماء ، يتسللن إلى الخلفية ، مسرعات ، يخفين غمزة عين ، أو يكتمن ضحكة وربما يوارين دمعة . وفى نهاية الأمر أليس لدينا عدد لايحصى من الكتب التى كتبت عن حياة جين أوستن ؟ كما أنه ليس هناك ما يضاف بعد كل ما قيل عن تأثير تراجيديات چوانا بايلى على شعر إدجار آلن پو ، وإذا أردتن رأيى فأنا لا مانع لدى على الإطلاق لو أنهم أغلقوا مزارات وبيوت مارى راسل ميتفورد دون الزوار لمدة قرن على الأقل من الزمان . ولكن ما أجده بالفعل مستنكراً ، قلت لنفسى وأنا أبحث فى أرفف الكتب ، هو أننا لا نعرف شيئا عن حيوات النساء قبل القرن الثامن عشر . وليس لدى نموذج أقلبه فى ذهنى هنا وهناك .

فها أنذا أتسائل عن السبب فى أن النساء لم تكتب الشعر فى العصر الإليزابيثى ؟ وأنا لست متأكدة عن وسائل تعليمهن بل عما إذا كن يتعلمن الكتابة من الأصل أو إذا كانت لهن غرف جلوس تخصهن ، وكم منهن كانت لها أطفال قبل أن تبلغ من العمر سن الواحدة والعشرين ؟ باختصار ماذا كن يفعلن من الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساء . الواضح أنهن لم يكن يمتلكن المال ، ووفقاً لما قال البروفيسور تراڤليون كن يزوجن سواء رضين أم أبين قبل أن يخرجن من غرفة الأطفال فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة .

وبناء على تلك البراهين القليلة لم يكن من الممكن إطلاقاً أن تكتب واحدة منهن المسرحيات مثلما كتب شكسبير ، وإلا كان ذلك أمراً فى منتهى العجب . ووجدتنى أفكر فى ذلك السيد العجوز الذى توفى الآن وكان أسقفاً وهو القائل فيما أظن : إن عبقرية شكسبير تستحيل على امرأة فى عصر مضى أو آتى . وكتب للصحف رأيه هذا . وكان هو ذاته الذى أخبر سيدة سألته فى ذات مرة عما إذا كانت القطط تذهب إلى الجنة قائلا : إن القطط لا تذهب إلى الجنة وإن كانت لها أرواح من نوع ما . كم من التفكير كان يوفره علينا هؤلاء الشيوخ من الرجال المهذبين ! وكم كانت تنكمش حدود الجهل عند أقدامهم ! القطط لا تذهب إلى الجنة ، النساء لا يمكن أن يكتبن مسرحيات فى عبقرية مسرحيات شكسبير . وليكن الأمر كذلك ، قلت لنفسى وأنا أتصفح الرف الذى حوى أعمال شكسبير ، لقد كان الأسقف محقاً فيما يتعلق بالمسرحيات على الأقل ؛

كان بالفعل مستحيلاً لامرأة أن تكتب مسرحيات شكسبيرْ فى وقت شكسبير بالقطع . دعونا نتخيل بما أن الحقائق تستعصى على الجمع ماالذى كان يحدث لو أن شكسبير كانت له أختاً موهوبة على نحو بديع وكان اسمها مثلاً جوديث . لقد ذهب شكسبير فى أغلب الظن – وكانت أمه ميسورة بسبب إرث لها – إلى مدرسة البلدة حيث تعلم اللاتينية وقرأ أوفيد وفيرجيل وهوراس ومبادئ النحو والمنطق . كان شكسبير كما هو معروف صبيا طائشاً مغامراً يصطاد بغير حق فى أرض الغير ، الأرانب البرية وربما قتل غزالا حتى ، كما أنه اضطر للزواج من امرأة فى البلدة على وجه أسرع مما يجب ، أنجبت له طفلاً فى وقت أقصر مما يجب .

وكانت تلك المغامرة سبباً فى ذهابه إلى لندن ليحسن من وضعه المالى . وكان به شغف فيما يبدو بالمسرح وبدأ حياته سائساً يعتنى بالخيول أمام باب المسرح . ولكنه سريعاً ماوجد عملاً داخل المسرح وأصبح ممثلاً ناجحاً وعاش فى قلب الأحداث وتعرف على الكثيرين وعرفه الكثيرون ، يمارس فنه على الخشبة ويلقى قفشاته فى الشارع ، إلى أن وصل إلى قصر الملكة ذاته ، فى الوقت نفسه الذى كانت فيه أخته الموهوبة تلك ، دعونا نفترض ، قابعة فى البيت لا تتحرك . وكانت على القدر نفسه من حب المغامرة ولها القدر نفسه من ملكة الخيال وبها التوق نفسه لرؤية الدنيا . إلا أنهم لم يذهبوا بها إلى المدرسة ، ولم يعطها أحد الفرصة لتعلم النحو والصرف والمنطق ناهينا عن قراءة هوراس وفرجيل . كانت من حين لأخر تلتقط كتاباً ، واحدا من كتب أخيها ربما ، وتقرأ بضع صفحات . ولكن ، يدخل أبواها عليها ويأمرانها بترتيق الجوارب أو الاهتمام بالقدر على النار وألا تتسكع وتهدر وقتها عبثا مع الكتب والأوراق .

.كانوا فى الغالب يقولان ذلك فى نبْرة صارمة ولكن طيبة ، وذلك لأنهم كانوا أناساً يقدرون ظروف الحياة بالنسبة للنساء حق قدرها ويحبون ابنتهم – بل إنها فى الغالب كانت حبة عين أبيها . وربما كان فى مقدورها أن تكتب بضع صفحات سريعة فى الخفاء بعيداً فى غرفة فوق السطح ولكنها كانت تحرص على مواراتها وربما كانت أيضاً تحرقها . وقبل أن تخطو خارج سنى المراهقة وجدت نفسها تخطب سريعاً لابن تاجر الصوف فى البلدة وعندما صرخت واعترضت بأنها تجد الزواج منفراً ضربها أبوها بقسوة .

وبعدها ، كف عن لومها وتعنيفها وبدأ يتوسل إليها ألا تجلب عليه العار فى مسألة الزواج تلك وألا تجرحه . وكان يستعطفها والدموع فى عينيه ويعدها بأن يعطيها عقداً لطيفاً من الخرز أو قميصاً رقيقاً ناعماً . كيف يمكن أن تعصاه ؟ كيف لها أن تكسر قلبه ؟ ولكن قوة موهبتها وحدها هى التى دعتها أن تفعل ما يأتى : جمعت بقجة صغيرة حوت ممتلكاتها (الضئيلة) وأنزلت حبلاً من نافذتها ذات ليلة صيف وهربت إلى لندن .

لم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد . ولم تكن الطيور التى تغنى على الأفنان أكثر موسيقية منها . كانت لها موهبة مثل تلك التى لأخيها فى تذوق جرس الكلمات ، ومثله كانت تحب المسرح . وقفت عند باب المسرح وقالت لهم إنها تود أن تمثل ! وضحك منها الرجال . أما مدير المسرح وكان رجلا سميناً فانفجر مقهقهاً ، وجأر بكلام عن رقص

الكلاب وتمثيل النساء – وقال إنه من المستحيل أن تصبح امرأة ممثلة – ولمح إلى ما تستطيعون تخمينه . فهى لا يمكن أن تتلقى أى تدريب فى تلك المهنة ، وهل تستطيع أن تهيم فى الشوارع بعد منتصف الليل وتاكل عشاءها فى حانة ؟ لكن عبقرية (أخت شكسبير تلك) كانت فى مجال الكتابة الإبداعية وكانت تشتهى أن تغذى قريحتها على حيوات النساء والرجال وأن تدرس سلوكهم وأحوالهم . وأخيراً – ولأنها كانت صغيرة السن جداً – وكانت تشبه شكسبير على نحو يدعو للعجب ، فكانت لها العينان الرماديتان ذاتهما والحواجب المقوصة نفسها – أخيراً أشفق عليها نيك جرين (الممثل ومدير الفرقة) فوجدت نفسها حاملاً من هذا السيد المهذب – وهكذا . ولكن من يستطيع قياس العنف الذى يرتع متوقداً فى قلب شاعرة وقد اشتبك فى جسد امرأة – قتلت نفسها ذات ليلة شتاء وترقد الآن عند مفترق طريق ما حيث موقف الأتوبيس على مشارف منطقة إليفانت وكاسل .

أعتقد أن الحكاية ستكون على هذا النحو تقريباً لو أن امرأة فى عصر شكسبير كانت لها عبقرية شكسبير .

ولذا فإنى أوافق الأسقف المتوفى ، (لو كان بالفعل أسقفاً ومتوفياً) فى أنه كان غير وارد على الإطلاق ، فى زمان شكسبير ، أن يكون لامرأة ما عبقرية شكسبير ، وذلك لأن عبقرية شكسبير لم تولد وسط أناس غير متعلمين ، خانعين ويعملون الأعمال الشاقة (ليل نهار) ؛ بل ولدت فى إنجلترا وسط الساكسونيين والبريتون . وهى لا تولد اليوم وسط الطبقات العاملة فكيف كان يتسنى لها أن تولد وسط النساء حيث تبدأ وظيفة « المرأة » وشقاؤها وفقاً لما كتب البروفيسور تراڤليون ، قبل أن تغادر غرف الحضانة بالكاد ، ويرغمها على تلك الوظيفة أبوها وأمها وتستمر فيها تحت سطوة العرف والقانون ؟ ومع هذا لابد أن نوعاً ما من العبقرية كان بين النساء كما كان وسط الطبقات العاملة . فمن حين لآخر نجدُ أمثال إميلى برونتى ، أو روبرت بيرنز يخترق الحجب ويثبت وجود العبقرية فى تلك الظروف (الصعبة) . ولكن مما هو مؤكد ، لم تجد العبقرية بين النساء طريقها إلى الأوراق . لكننا حين نقرأ عن ساحرة غمروها فى الماء ، أو امرأة لبستها الشياطين ، أو امرأة حكيمة تبيع الأعشاب الطبية ، أو عن رجل بارع نابه على نحو خاص حتى ونسمع عن أمه ، فإنا فيما أعتقد نكون فى إثر روائية مفقودة ، أو شاعرة مقموعة ، أو شبيهة بچين أوستن وإن ظلت مقهورة خرساء ، أو إميلى برونتى أخرى وقد كسرت رأسها بيدها ونثرت مخها على البُوره * تتلوى وتموج على وجهها فى الطرق وقد خبت تحت وطأة العذاب الذى سلطته عليها

* منطقة واسعة من أرض قفراء فيها شجيرات صغيرة برية . . أما الإشارة فى النص فإلى نوع الطبيعة حول منزل الأخوات برونتى والتى خلدتها كاثرين برونتى فى مرتفعات وذرنج . .

موهبتها . والحق يقال إنى أذهب إلى أبعد من ذلك فأتصور أن الكاتب المجهول الذى كتب الكثير من الأشعار دون إمضاء ودون أن يغنيها إنما كان فى واقع الأمر امرأة . أعتقد أن إدوارد فتزجيرالد* يقترح علينا أن الذى كتب الكثير من الأغانى الشعبية والأراجيز كان امرأة تندن لأطفالها أو تحتال على ساعات غزل الصوف أو طول ليالى الشتاء .

وقد يكون ذلك حقيقيًا أو لا يكون – من ذا يستطيع الجزم ؟ – ولكن ما هو حقيقى ، أو هكذا تراءى لى ، وأنا أستعيد حكاية أخت شكسبير كما ألفتها ، هو أن أى امرأة ولدت فى القرن السادس عشر وكانت لها موهبة عظيمة لابد أنها فقدت عقلها ، أو رمت نفسها بالرصاص ، أو أنهت حياتها فى كوخ وحيد خارج القرية ، نصف ساحرة ، نصف ساحر ، يخافها الناس ويسخرون منها .

فلسنا فى حاجة إلى مهارات كبيرة فى علم النفس لنتأكد من أنه إذا حاولت فتاة ذات موهبة فذة استخدام موهبتها فى كتابة الشعر لأعاقها وحولها عن طريقها أى عدد من الناس ، وأنها ستفقد دون أدنى شك صحتها وعقلها تحت وطأة ذلك العذاب الذى يمزقها حين تنازعها إراداتان : إرادة الغير وغرائزها التى تدعوها فى اتجاه غير اتجاه توقعاتهم – فلم يكن فى استطاعة أية فتاة أن ترحل إلى لندن شائرة على قدميها وأن تقف أمام باب المسرح وتفسح طريقها بالقوة إلى حضرة مديرى المسارح دون أن تجلب على نفسها عنفاً وعذاباً وكمداً وحسرة قد تكون غير منطقية – وذلك لأن العفة وإن كانت طاغوتاً ابتدعته بعض المجتمعات لأسباب نجهلها – إلا أنها كانت طاعوناً يصعب تفاديه . العفة كانت إذاك ، ولا تزال حتى الآن ، ذات أهمية دينية لحياة المرأة ، وقد تحوصلت وتلفلفت واشتبكت مع أعصاب النساء وغرائزهن ، حتى إن استئصالها ووضعها تحت بؤرة الضوء يعد عملاً يتطلب شجاعة نادرة . فمعنى أن تحيا امرأة حياة حرة فى لندن فى القرن السادس عشر ، إذا كانت تلك المرأة شاعرة أو كاتبة مسرحية ، هو أن تحيا تحت ضغوط عصبية وحيرة قد تؤدى فى النهاية إلى موتها . ولو كتبت لها النجاة من هذا المصير لكان كل ما تكتب متأثراً بخيال مجهد وسقيم لا تنتج عنه سوى كتابة ملتوية ومشوهة وهو أمر لايدعو للدهشة . فكرت وأنا أنظر إلى الرف حيث لا توجد مسرحيات كتبتها نساء . إن غياب توقيع النساء على أعمالهن إنما هو بالتأكيد ملاذ ، كانت تتخذه تلك المرأة . وعدم إمضاء العمل هو أثر باق من تقليد العفة الذى اختص النساء بعدم الذكر والمجهولية ، وهو الأمر الذى استمر فى القرن التاسع عشر حتى قرب نهايته . ولنا أمثلة فى أسماء كارر بل وجورج أليوت وجورج ساند ،

* مترجم رباعيات الخيام .

اللواتى كن كلهن ضحايا للصراع الداخلى كما تثبت كتاباتهن وقد سعوا دون فائدة إلى حجب أنفسهن عن طريق إستخدام اسماء الرجال . وبذا فقد أدّين فروض الطاعة والامتثال للتقاليد التى لم يزرعها الرجال ربما إلا أنهم شجعوا استمرارها بسخاء (كما قال بيريكليز : إن مجد المرأة الأساسى هو ألا يتحدث عنها أحد . وكان هو نفسه من أكثر الرجال عرضة لأن يتحدث عنه الآخرون) وتتلخص تلك التقاليد فى أن الشهرة – للنساء فقط – أمر مستنكر .

فالمجهولية تجرى منهن مجرى الدم . والرغبة فى أن يحتجبن ما زالت تتملكهن . وهن ، حتى الآن ، غير مكترثات بأمر الشهرة وصحتها مثل الرجال . وإذا أردنا حديث العموميات ، فغالبا ما تمر النساء على شاهد قبر أو علامة طريق دون أن تأخذهن تلك الرغبة المأجوجة فى كتابة أسمائهن عليها ، كما يفعل « ألف » أو « بيرت » أو « تشاس » تحت وطأة غريزة التملك التى تستعر كلما رأوا امرأة تمر أو حتى كلب : « هذا الكلب ملكى » ، وبالطبع ليس بالضرورة أن يكون الشئ كلباً . فكرت وأنا أتذكر ميدان البرلمان وسيدجز إلى وأماكن أخرى . . قد يكون « الشئ » هذا قطعة أرض أو رجلاً ذا شعر أسود أجعد .

إنما واحدة من أعظم الميزات التى تتمتع بها النساء هى أننا فى مقدورنا المرور بفتاة سوداء رقيقة ومتميزة دون أن نتمنى أن نجعل منها امرأة إنجليزية .

تلك المرأة إذن ، التى ولدت ولها موهبة فذة فى القرن السادس عشر ، كانت امرأة تعيسة ، امرأة يمزقها صراعها ضد نفسها وكل ظروف حياتها . كل غرائزها كانت فى وضع العداء مع الحالة الذهنية التى يحتاجها المرء لإطلاق سراح ما يختزنه الدماغ . ولكن ، ما الحالة الذهنية الأكثر ملائمة لفعل الخلق الإبداعى ؟ تساءلت . هل فى استطاعة المرء أن يكوّن أدنى فكرة عن الكيفية التى تنمى وتثرى ذلك النشاط العجيب وتجعله ممكناً ؟ وهنا فتحت السفر الذى يحوى تراجيديات شكسبير . ماذا كانت حالة شكسبير الذهنية مثلاً ، عندما كتب « لير » و « أنطونيو وكليوباترة » ؟ لابد وأنها كانت الحالة الأكثر تشجيعاً وملائمة لكتابة الشعر على الإطلاق . ولكن شكسبير نفسه لم يقل عنها شيئاً على الإطلاق . نحن نعلم بالصدفة وعلى نحو عرضى أنه « لم يلطخ سطراً واحداً بالحبو » (*) .الواقع أنه حتى القرن الثامن عشر لم يعلق فناناً واحدا على تلك الحالة الذهنية .

وربما كان « روسو » هو من بدأ بالحديث فى هذا الموضوع . ولكن بحلول القرن التاسع عشر على كل حال ، كان الوعى بالذات قد تطور إلى الحد الذى اعتاد فيه

---

* كناية عن أنه لم يشطب سطرا كتبه . هذا الاقتباس غيرموثق المصدر .

رجال الأدب وصف حالاتهم الذهنية فى الاعترافات والسير الذاتية . كما أن سيرهم وخطاباتهم كانت تطبع بعد موتهم . وهكذا ، وعلى الرغم من أننا لا نعلم ما كان يدور فى ذهن شكسبير وهو يكتب « الملك لير » إلا أننا نعلم ما عاناه كارلايل وهو يكتب كتابه بعنوان « الثورة الفرنسية » ؛ وما عاناه فلوبير وهو يكتب « مدام بوفارى » ؛ وما عاناه كيتس عندما كان يحاول كتابة الشعر فى مواجهة الموت القادم ولا اكتراث العالم .

ونفهم من هذا الكم الضخم من الأدب الحديث المختص بالاعترافات وتحليل الذات ، أن كتابة عمل عبقرى إنما هو عمل بارع ، عظيم ، ينطوى على صعوبة بالغة . هل من المتحمل أن يخرج العمل من ذهن الكاتب كاملاً مكتملا ؟ إن كل الأمور تعرقل هذا الاحتمال ، والظروف المادية على نحو عام تقف ضده . سوف تنبح الكلاب وسوف يقاطع الناس خلوة الكاتب ، كما أن الصحة قد تنهار . ومما يبرز تلك المعوقات ويجعلها صعبة الاحتمال هو لا اكتراث العالم المتوقع مسبقا . فالعالم لا يطلب من الناس أن يكتبوا الشعر والروايات والتواريخ ؛ العالم ليس فى حاجة إليها . كما أنه لا يكترث إذا عثر فلوبير على الكلمة الدقيقة بالضبط أو إذا تحقق كارلايل تماماً من هذه الحقيقة أو تلك ؛ وبالطبع فإن العالم لا يدفع ثمن أشياء لم يطلبها . وهكذا فإن الكاتب ، سواء كان كيتس أو فلوبير أو كارلايل يعانى ، وبالذات فى سنين شبابه الإبداعى ، من كل شكل من أشكال التشوش والإحباط . إن ما يخرج من تلك الكتب الاعترافية والمليئة بتحليل الذات لهو صرخة ألم وضنى ولغنات وشعراء عظام ميتون فى تعاستهم ، – ذلك هو الحمل الثقيل الذى يحملونه فى سبيل شدوهم . فلو أن شيئا ماكتب على الرغم من كل هذا فهو نفسه ولاشك من المعجزات ، ولا يولد كتاب فى أغلب الأحوال كاملاً ، غير مغوق ، على النحو نفسه الذى ولدت به الفكرة من ورائه .

أما بالنسبة للنساء – وجدتنى أتأمل أرفف الكتب الشاغرة – فإن تلك الصعاب كانت أعظم بكثير . ففى المقام الأول ، لم يكن ليتوفر لهن غرفة تخصهن وحدهن ، ناهيك عن غرفة عازلة للصوت أو غرفة هادئة ، إلا إذا كان أهلهن أثرياء على نحو خاص أو نبلاء جداً . استمر ذلك حتى بدايات القرن التاسع عشر . كان مصروفهن الذى كن يعتمدن فيه على حسن نية آبائهن ورضاهم ، لا يكفى سوى الملابس . وبذا كن محرومات من الترويح عن النفس والتهوين الذى كان متاحاً حتى لكيتس أو تنيسون أو كارلايل وكل الرجال الفقراء ، فى أن يذهبن فى رحلة على الاقدام ، أو يزرن فرنسا زيارة قصيرة وأن تكون لهن غرفاً ومساكن تحميهن من جبروت ومطالب عائلاتهن ، مهما كانت تلك الغرف تعيسة . إن مثل تلك الصعوبات المادية كانت بالفعل عظيمة ولكن أسوأ منها ولا شك هو الصعوبات غيرالمادية . قلة اهتمام ولا اكتراث العالم الذى وجده كيتس وفلوبير وغيرهم من العباقرة غير محتمل ، كان فى حالة المرأة عداء واضحاً

وصريحاً . فالعالم لم يقل لها ما كان يقوله لهم . اكتبى لو أردت : إن ذلك أمراً لا يعنينى . وإنما قال العالم وهو يقهقه : تكتبين ؟ وما الفائدة وراء كتابتك ؟ وهنا قلت لنفسى إن علماء النفس من كليات نيونهام وجيرتون قد يستطيعون معاونتى وأنا أنظر مرة أخرى فى المساحات الفارغة على أرفف الكتب . فمن المؤكد أن الوقت قد حان لقياس ما يفعله غياب التشجيع والتثبيط وتأثيره على ذهن الفنان ووجدانه مثلما تفعل بعض شركات الألبان التى تقيس أثر اللبن العادى واللبن الممتاز على جسد الفئران (فى المعامل) . لقد وضعوا اثنين من الفئران فى أقفاص جنباً إلى جنب وكان واحد من الفئران خجولاً مخاوتًا وصغيراً أما الآخر فكان مقداما ولامعًا وكبيراً . ما نوع الطعام وفقا لتلك التجربة الذى يجب علينا توفيره للنساء والفنانين ؟

تسائلت وأنا أتذكر ، فيما أظن ، ذلك العشاء المكون من « القراصية والكاسترد » . وحتى أستطيع الإجابة على هذا السؤال.كان على أن أفتح صحيفة المساء وأقرأ رأى اللورد بيركنهد – ولكنى قررت ألا أنقل رأى اللورد بيركنهد فى كتابة النساء . كما أنى سوف أترك ما قاله « الدينى* » أنجى .كما أنه فى استطاعة الأطباء المتخصصين فى « هارلى ستريت » ** أن يثيروا أصداء قوية وضجيجاً عالياً ولا يهز ذلك شعرة فى رأسى . ولكنى سوف أسوق لكم كلام « السيد أوسكار براوننج » وكان شخصية لها وزنها فى كامبريدج آنذاك ، وكان يمتحن الطلاب فى كلية ، جيرتون أو نيونهام . كان السيد أوسكار براوننج كثيراً مايعلن عن رأيه الذى يقول : « إن الانطباع الذى تتركه على ذهنه أوراق امتحان الطلاب وبلا اعتبار للدرجة التى نالها الطالب ، هى أن أفضل النساء عقلية إنما هى أدنى من أسوأ رجل » وبعد أن يقول ذلك يعود السيد براوننج إلى سكنه – وما يجعل منه شخصاً محبوباً وإنساناً يمتلك قدراً من العظمة هو هذا التسلسل – فعندما يعود إلى مسكنه يجد صبيا من عاملى الإسطبل ملقىً على الأريكة – « وهو أشبه بالهيكل العظمى ، ووجنتاه غائرتان وعظام وجهه بارزة ، وأسنانه سوداء ويبدو عليه أنه لا يستطيع تحريك كل أطرافه ... « وهذا هو أرثر » [قال السيد براوننج] إنه صبى عزيز وله عقل طموح » إن إحدى الصورتين تكمل الأخرى فى ذهنى دائماً .

من حسن حظنا أن الصورتين فى هذا العصر الذى يتسم بكثرة كتابة السير الذاتية تكملان بعضهما بالفعل ؛ فنستطيع الحكم على آراء الرجال العظام لا مما

---

* Dean وهو عميد الكلية أو رئيس الكاتدرائية .

** Harley Street حى فى لندن ، يعرف بتجمع عيادات مشاهير الأطباء وبه مستشفى مشهور — هارلى كلينيك .

يقولون فحسب ولكن مما يفعلون أيضاً ، إلا أن مثل تلك الآراء عندما كانت تخرج من أفواه أناس مهمين من قبل خمسين سنة كان لها - لابد - وقع خاص فى النفوس .

دعونا نفترض ، على سبيل المثال ، أن أباً ما ولأسباب نبيلة جداً لم يكن يريد لابنته أن تترك البيت وتصبح كاتبة أو رسّامة أو أستاذة . ترى ماذا كان يقول السيد أوسكار براوننج فى هذه الحالة .

علينا أن نتذكر أن السيد أوسكار براوننج لم يكن وحيداً فى تلك الآراء وإنما كان هناك من ينشر مثلها فى جريدة الساترداى ريفيو ؛ كان هناك أيضاً السيد جريج الذى قال مؤكداً : « إن جوهر وجود النساء هو أنهن خاضعات للرجال ، فالرجال قوامون عليهن ، وعليهن الخضوع لهم » . كان هناك كم هائل من الآراء الذكورية تتلخص فى دونية القدرة العقلية للنساء ويترتب عليها عدم توقع الخير منهن فى هذا المضمار (مضمار تلقى العلم و الكتاب) . وحتى لو لم يقرأ الأب على ابنته مثل تلك الآراء ، كان فى وسعها أن تقرأها بنفسها . ولابد أن قراءة مثل هذه الآراء حتى فى القرن الثامن عشر ، كانت سببا فى الانتقاص من حيويتها وقدرتها على المبادرة مما كان له تأثيرٌ سلبى عميق على عملها . فالتأكيد دائم على عدم قدرتها فعل هذا الشئ أو ذاك - لن تستطيعى ، لن تقدرى على الاعتراض ، لن تتغلبى . ربما كانت مثل تلك الجرثومة غير ذى بال الآن بالنسبة للروائية ، لأن كثيرًا من النساء أثبتن جدارتهن فى هذا الفن . ولكن بالنسبة للمصورات والرسامات لاتزال للجرثومة قدرة على اللدغ ، أما بالنسبة للموسيقيات ، تبث الجرثومة سمها فى نشاط تام . إن المرأة الموسيقارة تقف اليوم الموقف نفسه الذى كانت تقفه الممثلة فى زمن شكسبير ، كررت لنفسى ما قاله نيك جرين وأنا أتذكر مسار الحكاية التى ألفتها عن أخت شكسبير ، قال : إن امرأة تمثل إنما تذكره بكلب يرقص . وقد كرر الدكتور جونسون العبارة نفسها بعد جرين بمائتى عام عندما تحدث عن النساء « الواعظات الخطيبات » .

وهنا قلت وأنا أفتح كتابًا عن الموسيقى : ها نحن أمام الكلمات بحرفها عن النساء اللواتى يكتبن الموسيقى فى عام الرب هذا ، ١٩٢٨ . وكان الكتاب يقول :

« أما فيما يخص الآنسة جيرمين ثايفار فلا يستطيع المرء إلا تكرار مقولة الدكتور جونسون عن النساء الخطيبات» .

قال جونسون عندما سُئل فى الموضوع ، ونضع هنا التعبيرات الموسيقية بدلا من تعبيرات جونسون الدينية : « يا سيدى إن امرأة تضع الموسيقى مثلها مثل كلب

يرقص على أرجله الخلفية . هو لا يرقص جيداً بالطبع ولكن المرء يدهش أنه يرقص أصلاً » (١) إن التاريخ يكرر نفسه بدقة متناهية .

وهكذا استخلصت ، وأنا أغلق سيرة حياة السيد أوسكار براوننج وأنحى بقية الكتب جانبا ، أن النساء وحتى القرن التاسع عشر لم يُشجعن على أن يصبحوا فنانات . بل على العكس ، كان يستهان بهن وتلقى على مسامعهن المحاضرات ويحرضن على ترك الانشغال بالفنون . لابد وأن ذهن المرأة كان يقع تحت ضغوط هائلة ، ولابد أن حيويتها كانت تنخفض وتنقص بسبب حاجتها إلى مواجهة كل هذا الكم من عدم الرضا . فى مجال ذلك المُركّب الذكورى الغامض الذى كان له أكبر الأثر على الحركة النسائية سنجد تلك الرغبة المتوطنة لا فى أن تكون هى « أدنى وأقل شأناً » ولكن فى أن يكون هو « أسمى وأرفع شأناً » مما يجعل هذه الرغبة فى نظرنا عائقا ليس فى الفنون فحسب وإنما عائقٌ فى مجال السياسة كذلك ، بحيث لايكون هناك خطر عليه . وتذكرت أن حتى الليدى بيسبورو بكل ما كان بها من ولع بالسياسة كان عليها أن تكتب للورد جرانفيل ليفيسون - جاور قائلة :

« ..... على الرغم من اندفاعى فى موضوع السياسة والحديث فيها بهذا التواتر ، فإنى أوافقك تماماً أن المرأة ليست لها مصلحة فى التدخل فى مثل هذا الموضوع الجاد ، أو أى موضوع جاد آخر ناهينا عن إعطاء رأيها» (إن هى سيئلتْ) . وتكمل الليدى بيسبورو خطابها فى حماسة عن موضوع لا يمكن أن يثير الاعتراض ، فتركز على خطاب اللورد جرانفيل الأول فى مجلس العموم . ياله من مشهد غريب بالتأكيد .

إن تاريخ مقاومة الرجال لتحرر النساء ربما كان أكثر إثارة من قصة التحرر نفسها . وقد ينتج عنه كتاب صغير مسل جداً لو أن طالبة صغيرة فى جيرتون أو نيونهام جمعت ما يكفى من الأمثلة واستنتجت منها نظرية - ولكنها ستحتاج قفازات سميكة لحماية يديها وقضباناً من الذهب الخالص لحمايتها مما قد يترتب على ذلك .

ولكن ما هو مسل ، الآن فى هذه اللحظة ، تذكرت ، وأنا أغلق الكتاب على الليدى بيسبورو ، هو أن أحدا لم يشك فيما إذا كانت تلك السيدة تتحدث على نحو جاد أم لا . إن الآراء التى نجمعها ونلصقها الآن فى كتب نعتبرها غير جادة ، ونحتفظ بها لقراءتها على جمهور صغير خاص فى ليلة صيف ، كان لها تأثير عظيم يوما ما حتى

(١) من عرض للموسيقى المعاصرة . سيسيل جراى ص ٢٤٦.

إنها كانت تتسبب فى ذرف الدموع . أؤكد لكن ، أنه كانت من بين أمهاتكن وجداتكن الكثيرات ممن ذرفن دموعاً ساخنة مثلما صرخت فلورنس نايتنجيل فى وحدتها وألمها يوما [1] . إضافة إلى ذلك ، فأنتن يامن وصلتن إلى التعليم العالى وتتمتعن بغرف جلوس (أم أنكن تسكن فى غرف من النوع الذى يضم الجلوس والنوم فى حيز واحد ؟) أنتن يامن حققن ذلك تحتفظن لأنفسكن بالرأى القائل بأن العبقرية عليها التغاضى عن مثل تلك الآراء ، وأن على العبقرية أن تكون أكبر من أن تهتم بما يقال عنها . ولكن للأسف ، يهتم العباقرة من النساء والرجال أكثر من غيرهم بما يقال عنهم . تذكرون كيتس ، تذكرون الكلمات التى يحملها شاهد قبره ؟ تأملوا تنيسون – أظننى لست فى حاجة إلى أن أدلل أكثر من ذلك على حقيقة لا تنكر ، وإن كانت تدعو للسعادة فى الواقع ، حقيقة أن الفنان بطبيعته يهتم على نحو زائد عن الحد بما يقال عنه . والأدب ملئ بحطام الرجال ممن اهتموا برأى الآخرين فيهم إلى حد جاوز حد المنطق .

مما لا شك فيه أن تلك الحساسية المفرطة تدعو إلى الأسف ، فكرت وأنا أعود مرة أخرى إلى بحثى الأصلى وهو : الحالة الذهنية الأكثر ملائمة للعمل الإبداعى . كى يستطيع الفنان أن يحرر العمل الذى بداخله كاملا متكاملا يجب أن يكون ذهنه متوقدا تماما كذهن شكسبير ، وتخيلت شكسبير وأنا أتطلع إلى الكتاب الذى حوى مسرحية أنطونيو وكليوباترة . حتى يفرز ذهن الفنان ماديه يجب ألا يكون به عائق أو أشياء غريبة غير مهضومة (فى نسيجه) .

فعلى الرغم من أننا نقول إننا لا نعلم شيئاً عن حالة شكسبير الذهنية والوجدانية فإننا حتى بقولنا هذا نعلق على تلك الحالة . وربما كان السبب فى أننا نعتقد أننا لا نعلم إلا القليل عن شكسبير لو قارناه بما نعلمه عن « دون »* أو بن جونسون أو ميلتون هو أن كراهياته وعداواته ومعاركه الصغيرة مخبأة عنا تماماً . فنحن غير معوقين باكتشاف الكاتب من كلماته فقد انتفت تماماً فى أعماله كل رغبة فى الاعتراض على واقعه ، وتقديم النصح ، أو الإفصاح عن جرح خاص ، أو الثأر أو الضغينة . ولذا فإن شعره يجرى منه حراً غير معوق بأى عائق .

لو أن هناك امرءاً سنحت له فرصة التعبير الكامل فى أعماله فهذا المرأ هو شكسبير . لو أن هناك ذهناً متوقداً غير معاق بأى اعتبارات ، فكرت وأنا أرجع إلى أرفف الكتب ، فإن هذا الذهن هو ذهن شكسبير .

---

(١) انظر كاسندرا بقلم فلورنس نايتنجيل نشرت فى (The Cause) أو « القضية » ونشرها د . ستراتشى .

* جون دون John Donne الشاعر الميتافيزيقى من القرن السابع عشر .

- ٤ -

أن يعثر المرء على امرأة فى القرن السادس عشر لها مثل تلك الحالة الذهنية لهو أمر مستحيل .

ما علينا سوى التفكير فى شواهد القبور - الإليزابيثية وكل هؤلاء الأطفال الذين ركعوا حولها وأياديهم مضمومة ثم موتهم المبكر ؛ ما علينا سوى أن نستحضر فى خيالنا بيوتهم بغرفها الضيقة المزدحمة المظلمة ، حتى ندرك مدى استحالة أن تكون امرأة قد استطاعت كتابة الشعر وقتها . أن أقصى ما يتوقعه المرء من ذلك الزمن هو أن تكون سيدة من بيت عظيم قد استغلت وضعها الاجتماعى والحرية النسبية التى كفلها لها ذلك الوضع فنشرت شيئاً ووقعت عليه وبذلك خاطرت بصورتها لدى الناس ، واعتبروها وحشاً أو مسخاً . إن الرجال ليسوا بالطبع أدعياء للعظمة - أكملت الخاطر وأنا أتفادى وأتجنب المشاعر « النسوية المتهتكة » على نهج الآنسة وبيكا وست - ولكنهم يقدرون ويتعاطفون فى أغلب الأحيان مع محاولات « كونتيسة » ما فى كتابة الشعر . فنحن لا نندهش إذا ما وجدنا سيدة نبيلة من بيت ثرى تتلقى تشجيعاً أكبر مما الذى يمكن أن تتلقاه فتاة مغمورة اسمها مس أوستن أو مس برونتى فى ذلك الوقت . ولكنا فى الغالب أيضاً لايدهشنا أن نجد تلك السيدة مشوشة الذهن تعترى قصائدها آثار ذلك الخلل . ها هى الليدى ونتشيلسى على سبيل المثال ، تكتب قصائدها . ولدت تلك السيدة فى عام ١٦٦١ وكانت نبيلة المولد وتزوجت رجلاً من أسرة نبيلة كذلك ولم تنجب أولاداً ، وكانت تقرض الشعر وما أن نفتح قصائدها حتى نجدها تنفجر بالسخط على أوضاع النساء :

كم سقطنا وكم سقطنا بفعل قاعدة خاطئة
والتعليم أكثر من مهرج للطبيعة
منعنا من كل تحسين للذهن والوجدان
كى نظل بلا روح ، أغبياء عن إصرار ؛
وإن حلقت إحدانا فوق الأخريات وقد رفعها طموح أقوى
وخيال أدفأ لاقت من المعارضة ما يكفى

* الإشارة هنا إلى الروائيتين الشهيرتين فى القرن التاسع عشر : جين أوستن وشارلوت برونتى .

ويزيد ؛

فما نجاة من أمل لا يقاس بمدى الخوف المستبد .

من الواضح أن ذهن الليدى ونتشيلسى لم « يهضم» ويتخطى كل العوائق حتى يصير وقاداً مشعاً . بل على العكس يحيد عن مساره بفعل القلق والإزعاج اللذين ينتجان عن الكراهية والضغائن . إن الجنس البشرى بالنسبة لها منقسم إلى فريقين ، والرجال هم « الفريق المعارض » ؛ والرجال موضع كراهية وخوف ، لأن لهم السلطة فى حرمانها مما تريد ، وهو الكتابة :

> ويلها ! المرأة التى تحاول الإمساك بقلم . يالها من مخلوق مدع . يقولون هو عيب لا يمكن أن تمحوه أى فضيلة . يقولون لنا إننا نخطئ فى حق جنسنا ونخطئ الطريق إلى التربية القويمة والسلوك اللطيف والرقص والملبس واللعب . فتلك هى المهارات التى يتوجب علينا الرغبة فيها . لو كتبنا أو قرأنا أو فكرنا وسألنا لحجب ذلك جمالنا وأرهق وقتنا وعرقل غزوات صدر شبابنا فى حين أن الإدارة المملة لبيت مستعبد يعتبرها البعض أقصى ما يجب أن نطمح فيه من فنون .

الواقع أنه كان على تلك السيدة أن تشجع نفسها على الكتابة بافتراض أن ماتكتب لن يجد طريقه أبداً إلى النشر . ولذا ، فهى ترتل فى حزن :

> « غنِّ لحفنة من الأصدقاء ،
>
> ولأحزانك غنِّ فلن يكون لك أبداً خميلة غار ؛ ولتكن ظلالك كثيفة مظلمة ،
>
> وكونى فيها راضية .

ولكنه من الواضح أيضاً أنه لو كان فى استطاعتها تحرير ذهنها ووجدانها من الكراهية والخوف ولم تغمرهما المرارة والنقمة لكانت النار بها متأججة مشعة . فمن حين لآخر نجدها تكتب شعراً خالصاً ؛

> تذبل الوردة الفريدة
>
> لن تكتب شعرا
>
> وهى ترتدى الحرير الباهت

وقد مدح كل من « موري » و « پوب » * وتذكر آخرين تلك الأبيات واقتبسوها :

والآن تتغلب زهرة النرجس على الذهن السقيم

ويغشى علينا الألم شذى عطر

من دواعي الأسف ألف مرة أن تجبر امرأة على المرارة والغضب ولها قدرة على الكتابة كتلك ولها عقل ووجدان متصل برهافة مع الطبيعة وميلاً إلى التأمل (الخلاق) . ولكن كيف كان يتسنى لها أن تساعد نفسها ؟ قلت وأنا أتخيل كم السخرية والضحك ، والتملق والنفاق الذى يسبغه المتزلفين لمصلحتهم الخاصة ، وتشكك الشعراء المحترفين وريبتهم . لابد أنها حبست نفسها فى غرفة فى بيتها الريفى كى تكتب أشعارها ومزقتها المرارة والتورع والتردد حتى وإن كان زوجها أطيب الأزواج وحياتها الزوجية حياة كاملة لا نقص فيها ولا عيب « لابد أنها » . أقول «لابد» لأننا إذا أردنا البحث عن الحقائق فى حياة الليدى ونتشلسى نجد ، كالمعتاد ، أننا لا نعلم عنها شيئاً تقريباً . لقد عانت تلك السيدة من الاكتئاب وهو ما نستطيع تفهم أسبابه إلى حد ما ، عندما تصفهم لنا وهي فى براثن نوبة من تلك النوبات :

يهزأون بما أسطر ؟ ويرجعون شغلى وشاغلى إلى فرط ادعاء أحمق .

وكان شغلها وشاغلها ، الذى وقع تحت طائلة الرقابة الإجتماعية هو فيما يبدو ، التجول فى الحقول وإطلاق العنان للحلم :

تبتهج يدى وهى تستكشف أشياء غير عادية ، وتحيد عن طرق المألوف المبتذل

تذيل الوردة الفريدة

لن تكتب شعرا

وهى ترتدى الحرير الباهت

وبالطبع ، إذا كان ذلك هو ما اعتادت عليه ، وكان هو ما تبتهج له ، فمن المتوقع وغير المستغرب أن تجد نفسها موضع السخرية ، ولذا قيل أن « پوپ » أو « جاى » وصفها بأنها « امرأة ذات جورب كحلى بها حكة تجعلها تنقش الورق » ** . يعتقد أيضاً أنها أساءت إلى جاى عندما سخرت منه ذات مرة .

(*) جون موري الناشر المعروف وألكسندر پوپ الشاعر .

(**) ذات جورب كحلى = blue stocking

بمعنى امرأة مسترجلة وكانت لفظة تطلق على النساء اللواتى يدافعن عن قضايا المرأة .

يقال إنها قالت « إن ما يكتب إنما يثبت لنا أنه لا يصلح للركوب فى عربة تجرها الخيول بل لجر العربة » ؛ ولكن يظل مثل ذلك « نميمة غير موثوق فيها » على حد قول « مورى » ، الذى اعتبر الأمر برمته مسألة « غير شيقة » . ولكنى لا أوافقه هذا الرأى ، فأنا شخصياً كنت أود العثور على كم أكبر من النميمة ، غير الموثوق بها حتى ، كى أستطيع تكوين صورة ما عن تلك السيدة المكتئبة الحزينة التى كانت تحب التجول فى الحقول والتفكير فى أشياء غيّر اعتيادية والتى هزأت ، متهورة ، منحية الحكمة جانباً من « الإدارة المملة لبيت مستعبد » . لكن ملكاتها تبعثرت - يقول لنا « مورى » - وتشعبت فى داخل موهبتها الحشائش الضارة وأحاطت بها الأشواك ، ولم تعط الفرصة لإثبات ذاتها فى صورتها الحقيقية : موهبة دقيقة ، ناعمة ومتميزة .

وهكذا تحول اهتمامى إلى سيدة عظيمة أخرى وأنا أعيد الليدى ونتشيلسى إلى الرف ، الدوقة التى أحبها « لامب » ، تلك المرأة الطائشة ، الغريبة مارجريت دوقة نيوكاسل التى زامنتها وإن كبرتها سناً . كانتا مختلفتين لكنهما تتشابهتا فى أن كلاً منهما تنتمى إلى طبقة النبلاء ولم تنجب أطفالاً ، كانت زوجاً لرجل ممتاز . وكانت نيران الشعر تتأجج فى وجدانهما كما شوهتهما الظروف والأسباب . فإذا فتحنا كتابا للدوقة نجد فيه ذات الصرخة الغاضبة :

« نعيش النساء كما نعيش الوطاويط والبوم ، يعملن كالحيوانات ويمتن كالدود » .

مارجريت أيضاً كان من الممكن أن تكون شاعرة ؛ وفى يومنا هذا كان كل هذا ، النشاط الذى تميزت به يجلب عليها عائداً ما . ولكن فى زمنها ما الذى كان ليطوع ويروض ذلك الذكاء الوحشى ، السخى غير المهذب بالتعليم ؟ ولذا اندفع يندفق ويفيض مختلطا ومشوشا فى وابل من الكلام المقفى والمنثور من الشعر والفلسفة ويحفظ فى صفحات « كوارتر » وكتب من القطع الكبير لا يقرأها أحد . كان يجب أن يضع أحدهم فى يدها ميكروسكوباً . كان يجب أن يعلموها النظر إلى النجوم وأن تفكر على نحو علمى . ولذا تحولت قريحتها بفضل الوحدة والحرية . لم يعلمها أحد . لم يشرف عليها أحد . وتملقها مدرسوها . وفى البلاط سخروا وتهكموا منها . وشكا من فجاجتها « إيجرتون بريدجز » بوصفها « لا تصح لامرأة ولدت فى الطبقة الراقية وربيت وكبرت فى البلاط الملكى » وهكذا حبست نفسها فى بيتها فى ويلوك بمفردها .

يالها من صورة للوحدة والشغب والإخلال بالنظام توحى للذهن بها مارجريت كافنديش تلك ! كما لو أن ثمرة عملاقة قد فردت نفسها وابتلعت كل الورود وكل القرنفل

فى الحديقة فخنقتها حتى ماتت . يالها من مضيعة وإهدار أن يكون مصير تلك المرأة التى كتبت تقول « إن أفضل النساء تربية اللواتى لهن أذهان مهذبة » ، هو أن تتلف وقتها فى كتابة اللغو والسخف وتغوص إلى قاع التجاهل وخمول الذكر والاستشاطة والجنون ، حتى إن الناس كانوا يتحلقون حول عربتها كلما بادرت بالخروج . مما لا شك فيه أن الدوقة المجنونة أصبحت مثلا يضرب لتخويف الفتيات الماهرات .

وهنا تذكرت وأنا أعيد كتاب الدوقة وألتقط خطابات دوروثى أوزبورن أن «دوروثى» كتبت إلى« تمبل » عن كتاب الدوقة الجديد تقول : « من المؤكد أن المرأة المسكينة مشوشة الذهن إلى حد ما ، وإلا ما كانت وضعت نفسها موضع السخرية بكتابتها هذا الكتاب ، ناهيك عن كونه شعراً أم لا . لو أنى لم أنم أسبوعين بطولهما لما وصل بى الحال إلى مثل هذا » .

ولذا ، وبما أنه ، ما من امرأة عاقلة وبها قدر من الحياء كانت لتستطيع كتابة الكتب ، وبما أن دوروثى أوزبورن كانت امرأة حساسة جداً وذات مزاج حزين فهى لم تكتب شيئاً . والخطابات لا تؤخذ فى الحسبان بوصفها كتابة . ففى استطاعة أية امرأة أن تكتب الخطابات وهى جالسة بجوار أبيها وهو على سرير المرض. وقد تكتبها إلى جانب المدفأة والرجال يتحدثون دون أن تزعجهم . ولكن الأمر الغريب ، كما بدا لى ، وأنا أقلب صفحات الخطابات ، هو موهبة تلك الفتاة الفذة الوحيدة غير المتعلمة ، فى تأخير الجمل وصياغة المشاهد . ولنستمع لها ولسردها المتسلسل الفياض :

«وبعد العشاء نجلس ونتحدث حتى يدلف بنا الحديث إلى السيد ب . عندها أختفى . أما حر النهار فنقضيه فى العمل والقراءة . ونحو السادسة أو السابعة أخرج للسير فى حديقة عامة قريبة من البيت حيث الكثير من الفتيات يرعين الأغنام والأبقار ويجلسن تحت ظل الشجر يغنين الأراجيز . أذهب إليهن وأقارن بين أصواتهن وجمالهن وصوت راعية قديمة وجمالها ، قرأت عنها ، وأجد أنهن مختلفات تماماً .

ولكن ثقى إنى أراهن بالبراءة ذاتها . أحادثهن وأجد أنهن لا يفتقدن من أسباب السعادة سوى أن يعلمن أنهن سعداء . ويحدث كثيراً ونحن وسط الحديث أن تنظر إحداهن حولها وتلحظ بقرتها وقد سارت فى اتجاه النزة المزروعة وإذا بهن كلهن يجرين مع صاحبتهن ، كما لو أنه كانت لهن أجنحة فى كعوبهن . وعلى الرغم من خفة حركتى فى العادة إلا أنهن يسبقننى ولا أتبعهن . عندما يحين وقت العودة أراهن يسقن ماشيتهن وأعلم أن ميعاد عودتى أنا أيضاً قد حان .

وبعد وجبة خفيفة أخرج إلى الحديقة ومنها إلى شاطئ نهر صغير يجرى بحذاها وأجلس متمنية لو كنت معى ... »

أكاد أقسم أن دوروثى كانت لها ملكة الكتابة . ولكن عندما تقول « لو أنى لم أنم لمدة أسبوعين لما وصل بى الحال إلى هذا » عن مرجريت كافنديش ، فإنا نراها تقيس المعارضة فى الجو فتجبر نفسها على الاعتقاد ، تلك المرأة الموهوبة ، بأن كتابة كتاب بالنسبة لامرأة فعل يستحق السخرية ويصمها بأنها مشوشة الذهن . وهكذا وصلنا إلى مسز « باهن » ، أكملت الخاطر وأنا أعيد الكتاب الصغير الذى حوى خطابات دوروثى أوزبورن على الرف .

عندما نصل إلى مسز باهن نكون قد وصلنا إلى منعطف هام فى الطريق . ونترك وراءنا السيدات العظيمات اللواتى كتبن بلا جمهور وبلا نقد يهتم بكتاباتهن ، وقد حبسن أنفسهن فى حدائقهن الخاصة وسط الأوراق التى لم يكتبنها لأحد وإنما لبهجتهن الخاصة . الآن ننزل المدينة ونحتك بالناس العاديين فى الشوارع . فمسز باهن كانت امرأة من الطبقة المتوسطة ولها كل فضائل السوقة من حس عال للفكاهة وحيوية وشجاعة : هى امرأة أجبرت بسبب موت زوجها وبضع مغامرات فاشلة قامت بها ، على أن تكسب قوتها كيفما اتفق . كان عليها أن تعمل على قدم المساواة مع الرجال . وكسبت من خلال العمل الشاق المستمر ما يكفى للعيش . إن تلك الحقيقة وحدها تفوق فى أهميتها أى شئ كتبته بالفعل ، حتى أبياتها الشعرية البديعة مثل « ألف شهيد صنعت » أو « جلس الحب منتصراً » ؛ لأن حرية ذهنها ووجدانها أو إمكان تلك الحرية فى المستقبل إنما تبدأ عندما تكسب قوتها من عرق جبنيها . فبعد أن تكون إفرا باهن قد فعلتها يصبح فى استطاعة الفتيات أن يذهبن إلى أهلهن ويقلن « لستم فى حاجة إلى إعطائنا مصروفا . فنحن نستطيع أن نكسب عيشنا بالقلم » وبالطبع يظل رد الأهل ولسنوات عديدة رداً تهكمياً : « بالطبع ممكن ولكن بأن تعشن حياة إفرا باهن ! الموت أفضل ! » ويغلق الباب بأسرع مما كان يغلق من قبل . أن موضوع عفة النساء ، ذلك الموضوع الشائق العميق وما يضفيه عليه الرجال من أهمية وتأثيره على تعليم الفتيات يطرح نفسه هنا للنقاش وقد يوفر المادة لكتاب يكتبه طالب أو طالبة فى جيرتون أو نيونهام إذا اهتم أحدهم بما يكفى . كما تصلح صورة الليدى دادلى وهى تجلس مرتدية حليها الماسية وسط الباعوض والبراغيث فى بورة اسكتلندية نائية أن تكون الصورة التى تتصدر مثل هذا الكتاب .

تقول لنا صحيفة التايمز وهى بصدد نشر خبر وفاة الليدى دادلى منذ أيام أن اللورد دادلى «كان رجلاً ذا ذوق مثقف رفيع ، وأنه كان يتمتع بمواهب عديدة وكان خيراً عطوفاً ولكنه كان ذا مزاج متقلب يميل إلى الديكتاتورية . فكان يصر أن تكون زوجته فى أبهى حللها ، كاملة الزينة حتى وهما فى رحلة صيد يقيمان خلالها فى كوخ ناءٍ فى اسكتلنده ؛ وكان يهيل عليها ويغدقها بالمجوهرات البديعة » وهكذا « فقد أعطاها كل شئ – ولم يكن يحملها أى قدر من المسئولية ؛ ثم حدث وأصيب اللورد بجلطة أقعدته ، ومرضته زوجته ، وأدارت ممتلكاته بكفاءة متناهية إلى الأبد» . لقد كانت الديكتاتورية – متقلبة المزاج تلك، موجودة فى القرن التاسع عشر أيضاً .

ولكن دعونا نعود إلى أفرا باهن . لقد أثبتت أفرا باهن أنها فى وسعها الحصول على المال عن طريق الكتابة وإن اضطرت إلى التضحية ببعض الصفات اللطيفة ؛ وهكذا أصبحت الكتابة تدريجياً لا دليلاً على الحماقة والتشتت وإنما صار لها أهمية عملية . فالزوج قد يموت أو تصيب العائلة مصيبة ما . وبدأت مئات من النساء يضفن إلى مصروف يدهن خلال القرن الثامن عشر ، كما كان البعض ينقذن عائلاتهن من الخراب من خلال الترجمة ، أو كتابة الروايات الكثيرة السيئة التى بطل توثيقها ولايمكن شراؤها الآن سوى من بائعى الكتب المستعملة فى شارع تشارنج كروس .

إن النشاط الذهنى المتطرف الذى خرج إلى حيز الوجود فى الجزء الثانى من القرن الثامن عشر فى أوساط النساء – الأحاديث والاجتماعات وكتابة المقالات عن شكسبير ، وترجمة الكلاسيكيات – كلها قامت على حقيقة راسخة : هى قدرة النساء على كسب المال عن طريق الكتابة . النقود تضفى الاحترام على العمل نفسه الذى لم يكن يدفع له مقابل . وحتى لو ظل الحال على ما هو عليه فيما يتعلق بالسخرية من «ذوات الجوارب الكحلية اللواتى بهن حكّة للنقش على الورق » إلا أنه ما من أحد كان لينكر أنهن كان فى استطاعتهن جلب النقود رغم ذلك . ولذا فإنه فى نحو نهاية القرن حدث تغير، لو أننى كنت أعيد كتابة التاريخ لاعتبرته أهم من الحروب الصليبية ومن حرب الورود * ولوصفت ذلك التغير الذى طرأ على المجتمع على نحو أكثر تفصيلا من هذين الحدثين : لقد بدأت نساء الطبقة المتوسطة فى الكتابة.

* حرب أهلية قامت على السطوة والثروة قامت War of the Roses بين بيتين نبيلين يحملان رمز الوردة هما يورك ولامكاستر وأنتى انتهت بصعود هنرى السابع إلى الملك .

فلو كانت روايات مثل الكرامة والكبرياء (*) (Prider and Prejudice) لچين أوستن أو ميدل مارتش Middlemarch لجورج إليوت أو ڤيليت Villette لأن برونتى أومرتفعات وذرنج لإميلى برونتى ، روايات فارقة فإن الأمر الذى أعده على القدر نفسه من الأهمية (وما لن أستطيع إثباته خلال ساعة زمن) هو أن النساء على وجه العموم وليس فقط الأرستقراطيات منهن اللواتى حبسن أنفسهن فى بيوتهن الريفية وسط الأوراق والمتملقين ، لجأن إلى الكتابة . وأنه لولا نساء الطبقة الوسطى الطليعيات ، ما كان لچين أوستن والأخوات برونتى وچورج إليوت أن يكتبن ، و مثلهن مثل شكسبير الذى ما كان ليكتب لولا « مارلو » الذى ما كان ليكتب لولا « تشوصر » الذى ما كان ليكتب لولا كل الشعراء المجهولين المنسيين الذين مهدوا الطريق وطوعوا الوحشية الطبيعية للغة. وذلك ، لأن الأعمال الفريدة العبقرية ليست وليدة قريحة وحيدة واحدة ، بل هى نتاج سنين طويلة من التفكير المشترك ، من تفكير مجموعة من الناس ، حتى إن تجربة الكل تقف وراء الصوت الأوحد . كان واجباً على چين أوستن أن تضع إكليلا من الزهور على قبر فانى بيرنى وأن تبدى چورج إليوت فروض الولاء لظل إليزا كارتر الممتلئة صحة وحيوية – تلك المرأة الشجاعة التى كانت تعلق جرساً على سريرها كى تصحو مبكرة لتتعلم اليونانية . وعلى كل النساء أن يغمرن قبر إفرا باهن بالورود ، الموجود فى وستمنستر أبى ** ، (وهى فضيحة ولكنه مكان ملائم تماماً) لأنها هى التى كسبت لهن حق الكلام بصراحة . كانت هى – على كل الريبة التى حامت حولها وبالرغم من مغامراتها العاطفية المتعددة – التى مهدت لى الطريق فأستطيع أن أقف بينكن اليوم وأقول دون أن يبدو ذلك أمراً مستحيلاً أو عجيباً : اكسبوا خمسمائة من الجنيهات فى السنة بعرق جبينكن .

هانحن ، إذن ، قد وصلنا إلى بدايات القرن التاسع عشر . وهنا ولأول مرة وجدت عدة أرفف موقوفة تماماً على أعمال النساء . ولكن لماذا كانت تلك الأعمال كلها باستثناءات قليلة جداً ، روايات ؟ إن الاتجاه الأصلى التلقائى كان نحو الشعر . و « أمهات الأغانى » كانت دائماً لشاعرة . فى كل من فرنسا وإنجلترا سبقت الشاعرات

* ترجم عنوانها فى مقال «المرأة والكتابة الروائية » لفرچينيا وولف ، وليد الحمامصى : التحامل والكبرياء وهى ترجمة أدق من ترجمتى لكنى أفضل الكرامة والكبرياء لوقعها .أنظر: ترجمة وليد الحمامصى لمقال فرچينيا وولف ألف . العدد التاسع عشر ١٩٩٩، وهو عدد خصص لصياغة المعارف بين التأنيث والتذكير (الجنوسة والمعرفة) .

** مقر دفن العائلة المالكة البريطانية وعظماء الأمة وشعرائها وكتابها المرموقين .

الروائيات . إضافة إلى ذلك ، فكرت وأنا أتطلع إلى الأسماء الأربعة الشهيرة ، ما الذى كان يجمع بين چورج إليوت وإميلى برونتى ؟ وألم يحدث أن شارلوت برونتى عجزت تماماً عن فهم چين أوستن ؟ وفيما عدا أن أربعتهن لم ينجبن أطفالاً ، وهى حقيقة ذات مغزى ربما ، لم يكن يجمع بينهن شئ على الاطلاق – حتى إن فكرة تصورهن وقد التقين فى غرفة واحدة ودار بينهن حديث متخيل – تصبح فكرة مغرية جداً . ومع هذا فقد كتب أربعتهن الرواية تحت وطأة قوى عجيبة دفعتهن دفعاً لذلك . هل كان لذلك علاقة ما بكونهن ينتمين إلى الطبقة الوسطى ؟ تساءلت . وهل كان لذلك علاقة بأن الأسر فى الطبقة الوسطى فى بداية القرن التاسع عشر كما أثبتت الآنسة إميلى ديفيز (بعد ذلك الزمن بقليل) لم يكن متاحاً لها سوى غرفة واحدة للجلوس لكل أفراد العائلة ؟ فإذا أرادت امرأة الكتابة كان عليها أن تكتب فى غرفة الجلوس المشتركة تلك ؟ وكما اشتكت الآنسة فلورنس نايتنجيل* قائلة فى حدة :

« إن النساء لاتتاح لهن فرصة نصف ساعة لأنفسهن » فقد كانت تُقاطَع باستمرار . ولذا كان من الأسهل كتابة النثر أو القصص ، ومن الأصعب كتابة الشعر أو المسرحية . فالنثر يقتضى تركيزاً أقل . وقد كتبت چين أوستن تحت تلك الظروف حتى نهاية حياتها . يقول ابن أختها فى مذكراته : « كيف تسنى لها أن تنجز ما أنجزت ، لهو أمر يدعو للدهشة ؛ وذلك لأنه لم يكن لها مكتب يخصها تلجأ إليه ، ولابد أن معظم العمل تم فى غرفة الجلوس المشتركة ، وكان عرضة لشتى أنواع التدخل ، العابر . وكانت حريصة ألا يلحظ عملها – أى من الخدم أو الزوار أو أى شخص لا ينتمى إلى العائلة مباشرة » (١) . وكانت چين أوستن تغطى مخطوطاتها بقطعة من ورق النشاف . إضافة إلى ذلك كان كل المتاح من تهيئة النساء وتدريبهن فى أوائل القرن التاسع عشر متصلاً بملاحظة الشخصيات وتحليل العواطف . لقد ثُقفت حواسهن لقرون عديدة من خلال المؤثرات المتاحة فى غرفة الجلوس المشتركة . كانت عواطف الناس تُطبع عليهن والعلاقات الخاصة ماثلة أمام أعينهن بصفة دائمة . ولذا كان من الطبيعى عند لجوء مثل أولئك النسوة إلى الكتابة أن يقع اختيارهن على جنس الرواية ، وذلك على الرغم من أن اثنتين من النساء الأربعة التى أشرنا إليهن هنا لم يكن بطبيعتهن روائيات كما هو واضح . كان أفضل لأميلى برونتى مثلاً أن تكتب المسرحيات الشعرية ؛ أما فيض ذهن چورج إليوت وعقليتها الرحيبة الواسعة فكان من الأفضل أن ينتشر ويمتد ويضفى من إبداعاته على التاريخ أو كتابة السير .

* مؤسسة أول مدرسة للتمريض كانت لها إسهامات عظيمة فى إنقاذ العديد من الأرواح من الموت بسبب حرصها على نظافة مستشفيات الميدان فى حرب القرم .

(١) مذكرات عن چين أوستن بقلم ابن أخيها جيمس إدوارد أوستن لى .

ولكنهن كتبن الروايات ، وقد يذهب المرء إلى أبعد من ذلك – قلت وأنا التقط رواية « الكرامة والكبرياء » – فيقول إنهن كتبن روايات جيدة . ففى استطاعة المرء دون أن يبدو متفاخراً ودون أن يتسبب ذلك فى أى ألم للجنس الآخر ، أن يقول إن «الكرامة والكبرياء » كتاب جيد .وعلى أية حال ، ما كان المرء ليخجل لو أنه ضبط متلبساً بكتابة « الكرامة والكبرياء » .

ولكن يبدو أن چين أوستن كانت تحمد الله عندما يصرصر الباب قبل دخول أحد عليها حتى يتسنى لها تخبئة مخطوطتها . لقد كان هناك مايشين بالنسبة لجين أوستن فى كتابة « الكرامة والكبرياء » .. وتساءلت : هل تكتب تلك الرواية على نحو أفضل لو أنها لم تعتقد أن عليها تخبئة مسوداتها من الزوار ؟ وقرأت صفحة أو اثنتين لأرى ؛ ولكنى لم أجد أدنى شئ يدل على أن الظروف التى كتب فيها هذا العمل قد أثرت عليه من قريب أو بعيد . وكانت تلك هى المعجزة الأساسية التى اتسم بها ذلك العمل . فها هى امرأة تكتب عام ١٨٠٠ تقريباً ، تكتب بلا كراهية وبلا مرارة ، وبلا خوف ، وبلا تشنج ودون أن تلقى على مسامعنا المحاضرات . كانت تلك هى الحالة التى كتب بها شكسبير ، فكرت وأنا أتطلع إلى أنطونيو وكليوپاترة . وعندما يقارن الناس مابين شكسبير وچين أوستن فذلك من منطلق أن عقل أى منهما ووجدانه كان هاضماً لكل المعوقات ، وأنه لهذا السبب لا نعرف شكسبير ، من ناحية أخرى هو السبب نفسه الذى يجعل چين أوستن متخللة لكل كلمة كتبتها وكذلك شكسبير . وإذا كانت چين أوستن قد عانت على نحو ما من ظروفها فما كان ذلك سوى لضيق نطاق الحياة الذى فرض عليها . فهى لم تسافر أبداً ؛ ولم تركب مركبة عامة وسط لندن ولم تأكل وجبة غداء فى محل بمفردها .

ولكن ربما كان السبب طبيعة چين أوستن ، ألا ترغب فيما لم يكن فى متناولها . لقد توافقت وتلاءمت موهبتها مع ظروفها على نحو تام . ولكنى أشك إن كان الشئ نفسه ينطبق على شارلوت برونتى ، قلت ، وأنا أفتح « چين إير » التى وضعتها إلى جانب « الكرامة والكبرياء » .

فتحت الرواية على الفصل الثانى عشر ووقعت عينى على تلك العبارة : « فليُمنى من يريد » . ما الذى كانوا يلومون شارلوت برونتى عليه ؟ تساءلت . وقرأت كيف كانت چين إير تصعد للسطح عندما كانت مسز فارفاكس تصنع الچيلى وتنظر عبر الحقول إلى المنظر البعيد . عندها كانت تشتاق – وكان هذا هو ما يلومونها من أجله – تقول « عندها كنت أشتاق إلى قوة فى البصر تتخطى تلك الحدود ؛ قوى تصل إلى العالم كثير الحركة ، إلى المدن ، والمناطق المفعمة بالحياة التى سمعت عنها ولم أرها قط : عندها كنت أرغب فى خوض التجربة العملية ؛ مزيد من التعامل والاشتباك مع بنى البشر من نوعى ، مزيد من المعارف وتنوع أكبر فى الشخصيات عما هو هنا فى متناول يدى .

كنت أقدر ما كان طيباً فى مسز فارفاكس وما كان طيباً فى آديل ولكنى كنت أؤمن فى وجود أشكال أخرى أكثر حيوية من الطيبة ، وما آمنت به تمنيت أن ألقاه .

من ذا يستطيع لومى ؟ كثيرون ولا شك . وسوف يقال إنى ساخطة (أتبطر) . ولكنه أمر ليس بيدى : التململ كان من طبيعتى ؛ وكان يدفع بى إلى الألم أحياناً ...

أمر لا جدوى منه أن تنصح البشر بالرضا والهدوء : البشر يتوقون إلى الحركة وسوف يصطنعونها لو لم يجدوها . هناك الملايين ممن حكم عليهم بحياة أهدأ من حياتى وبلايين أخرى تحيا حالة من الثورة الصامتة على قدرهم . لا أحد يعلم كم من الثورات تغلى فى صدر الحياة التى يحياها الناس . المفترض أن النساء هادئات على نحو عام . ولكن النساء يشعرن بالقدر نفسه الذى يشعر به الرجال . فهم أيضاً فى حاجة إلى رياضة ملكاتهن ، وحقول يمارسن فيها تلك الملكات ، وينفسن عن طاقاتهن مثل إخوتهن ؛ لكنهن يعانين من القيود المتحجرة ، والركاد التام ، كما قد يعانى الرجال بالضبط ؛ إنما هو من ضيق الأفق أن يقول لهن من هم أوفر حظًا إن عليهن قصر جهودهن على عمل « البودينج » وحياكة الجوارب ، ولعب البيانو وتطريز الشنط . هو نتاج عدم القدرة على تقدير ظروف الآخرين أن نسخر منهن أو نحكم عليهن حكماً قاطعاً ، لو أنهن سعين إلى تعلم المزيد ، أى أكثر مما يعتبره العرف ضرورياً لجنسهن .

فى تلك اللحظة وأنا وحدى ، كثيراً ما سمعت ضحكة جريس پول » .

ووجدتنى أفكر ، أن الانتقال «فى تلك اللحظة» من هذه الفقرة بالذات مربكاً . أن نقع هكذا – وإذ فجأة – على سيرة جريس پول ، أمر مقلق . قد يقول المرء – أكملت ، وأنا أضع الكتاب إلى جانب رواية « الكرامة والكبرياء » – إن المرأة التى كتبت تلك الصفحات كان لها حظ أوفى من العبقرية من چين أوستن ؛ ولكن إذا قرأنا الصفحات مرة أخرى ولاحظنا النتوءات والانتفاضات الصغيرة ندرك أنها لم يقدر لها أبداً أن تعبر عن عبقريتها على نحو تام ومتكامل . وسوف تكون كتبها ملتوية ومشوهة . سوف تكتب غاضبة حيث كان عليها الكتابة فى هدوء . وسوف تكتب بحماقة حيث يجب الكتابة بحكمة . وسوف تكتب عن نفسها فى حين أن عليها كتابة شخصيات الرواية . إنها فى حالة حرب مع قدرها وظروفها . فكيف كان يتسنى لها ألا تموت صغيرة السن غير متحققة ومتألمة .

لا يسعنا بعد هذا سوى أن نحاول تصور ما الذى كانت تؤول إليه شارلوت برونتى لو أنها امتلكت ثلاثمائة جنيه فى السنة – ولكن المرأة الحمقاء باعت أصول رواياتها بألف ومائتى جنيه دفعة واحدة ؛ ماذا كانت تؤول إليه لو أنها كان لها علم أكبر بالعالم

كثير الحركة والمناطق المفعمة بالحياة وتجربة عملية أوسع ومزيد من التعامل والاشتباك مع أناس من نوعها وتنوع أكبر فى الشخصيات فى محيطها . إن شارلوت برونتى تضع يدها بتلك الكلمات ، لا على عيوبها بوصفها روائية فقط ولكن أيضاً على نواحى النقص فى حياة النساء فى ذلك الوقت . وكانت تعى ، أفضل من أى أحد ، القدر الذى انتقص من عبقريتها ، وفرص نموها ، واضطرارها أن تتخيل الحقول البعيدة بدلاً من خوض التجارب والسفر والحياة وسط الناس . ولكن أحدا لم يمنحها مثل تلك الفرص ، بل إن تلك الفرص منعت عنها وعن قصد : وعلينا تقبل الحقيقة ؛ وهى أن كل تلك الروايات الجيدة ، فيلبيت ، إيما ، مرتفعات وذرنج ، ميدل مارتش ، كتبتها نساء كانت درايتهن بالعالم لا تتعدى المتاح منها فى منزل رجل دين محترم . وأنها كتبت كذلك فى غرفة المعيشة المشتركة فى ذلك المنزل المحترم ، وأن اللواتى كتبنها كن نساء يعانين من الفقر حتى إنهن لم يكن فى وسعهن شراء أكثر من رزمة ورق واحدة فى المرة لكتابة مرتفعات وذرنج أو چين إير . وقد نجت چورج إليوت ، هذا صحيح ، من ظروف الفقر تلك بعد كثير من المحن والخطب ، ولكن نجاتها لم تتعد العيش فى ڤيللا منزوية فى حى سان چون وود * . وأقامت هناك فى ظل استنكار المجتمع . كتبت تقول : « أود أن يفهم الجميع أنى لن أدعو أحدا لزيارتى إطلاقا مالم تطلب منى الدعوة » . ألم تكن تحيا فى الخطيئة مع رجل متزوج ؟ ألم يكن فى وسعها أن تفسد عفة مسز سميث **لو تلوث من تزورها لو أن عين تلك السيدة وقعت عليها ؟ على المرء الخضوع لأعراف المجتمع وأن يقطع نفسه عما يقال له « العالم » . قالت چورج إليوت . وفى الوقت ذاته وفى الناحية الأخرى من أوروبا كان شاب يعيش بكل حرية مع تلك الفجرية أو تلك السيدة العظيمة ؛ ويذهب إلى الحروب ؛ ينتقى بلا عائق ودون رقيب كل ما هو متنوع فى الحياة الإنسانية ، وهو ما خدمه على نحو باهر فى مرحلة تالية عندما بدأ فى الكتابة . لو أن تولستوى عاش منزوياً فى بيت أشبه بالدير *** مع سيدة متزوجة « منقطعاً عما يقال له العالم » ، ما كان فى استطاعته أن يكتب الحرب والسلام ، مهما كان فى مثل ذلك الدرس إصلاحاً للأخلاق وتهذيباً للنفس . ربما كان فى وسعنا الولوج أعمق قليلاً فى مسألة كتابة الروايات وتأثير جنس الكاتب عليه أو عليها .

لو أننا أغمضنا أعيننا وفكرنا فى الرواية ككل لبدا لنا أنها كيان أشبه بالمرأة التى تعكس الحياة ، وإن كانت مرآة تموج بالتبسيط والانبعاجات والتشوهات . فى أى الحالات ، هى بنية تترك شكلاً ما على الخيال والذاكرة ، تارة على هيئة مكعبات وتارة

---

* حى راق فى غرب لندن .

** كناية عن أى من كانت

*** تحيلنا فرچينيا وولف إلى ڤيلا چورج إليوت وكان اسمها The Priory وتعنى الدير .

على هيئة معبد بوذى ، وتارة يكون لها مهرات مسقوفة وأجنحة ممتدة . تارة تكون متداخلة مكتنزة متينة ومقببة مثل كاتدرائية سانت صوفيا في اسطنبول . إن ذلك الشكل ، قلت لنفسى وأنا أستعيد بعض الروايات الشهيرة ، يُشعر المرء بالعاطفة الملائمة . ولكن تلك العاطفة سرعان ما تمتزج بعواطف أخرى ؛ وذلك لأن « الشكل » لا يصنع من علاقة حجر بحجر ولكن من علاقة إنسان بإنسان . ولهذا ، فإن الروايات تخلق فينا أنواعًا شتى من العواطف المتضاربة المتعارضة . فالحياة تتعارض مع شيء هو « ليس حياة » . وهذا هو سر صعوبة الاتفاق على الروايات ، وسر عدم قدرتنا الحكم عليها بموضوعية ، وسر تأثير ميولنا الخاصة وتدخلها فى تلك الأحكام .

فمن ناحية نشعر بأن چون البطل يجب أن يعيش . ومن الناحية الأخرى نشعر أسفين أن چون يجب أن يموت لأن شكل الكتاب يقتضى ذلك . تتعارض الحياة مع ما هو « ليس حياة » . ولذا ، ولأنها حياة فى منحى ما فإنا نحكم عليها - جزئيا - بوصفها حياة . أن چيمس هو نوع من الناس أمقته أكثر من غيره - يقول المرء ؛ أو « إن هذا الذى يقال تخليط كلام وهوش بوش عبثى ، ولا يمكن لى أن أشعر بمثل ذلك » .

ما هو واضح بيّن ، هو أن البنية ، لو استرجعنا أى رواية شهيرة ، بنية غاية فى التعقيد لأنها مركبة من كم كبير من الأحكام المختلفة ومن كم أكبر من العواطف المختلفة . أما ما يدعو للدهشة والعجب فهو أن كتاباً يؤلف على هذا النحو ، يتماسك ، ويصمد سنة واثنتين ويصبح من الممكن أن يعنى للقارئ الإنجليزى ما يعنيه للقارئ الروسى أو الصينى . ولكن من حين لآخر يحدث أن يصمد ويعيش مثل هذا الكتاب على نحو لافت . وما يجعله متماسكاً فى حالات النجاة القليلة تلك (وكنت أفكر فى رواية الحرب والسلام) هو شئ يقال له صحة تمام العمل وتمام الخُلق الذى بنى عليه ، وهو مالا علاقة له بالالتزام بدفع الفواتير فى ميعادها أو بالتصرف فى نبل وقت الطوارئ ..

إن ما نعنيه بتمام الخُلق (*) فى حالة الروائى هو القناعة التى ينقلها لنا بأن ما يقول هو الحقيقة . ونشعر ونحن نقرأ وعلى الرغم من عدم اعتقادنا أن أمراً ما كان ليحدث على النحو الموصوف فى الرواية أو أننا لم نلق أبداً أناساً يسلكون مثل ذلك السلوك ، فإن الكاتب أقنعنا أن ذلك - بالفعل - كذلك .

---

* الأصل integrily وتدل على الانسجام والتوافق بين السلوك والمبدأ . وإذا كان تعبيرًا مثل « متسق مع ذاته » أو « الصدق مع النفس » أو « النزاهة » فى العربية يفى بهذا الغرض فإنه لا يحمل معنى التمييز الأخلاقى الذى تحويه الكلمة الانجليزية وما كان يفى فى رأيى لنقل الحس الذى تنقله الكلمة الإنجليزية من علاقات تكاملية تنتج عنها وحدة نهائية .

يرفع المرء كل جملة وكل مشهد للضوء يتفحصه وهو يقرأ – لأن الطبيعة فيما يبدو ، وياللعجب ، قد وفرت لنا ضوءاً داخلياً نستطيع به أن نحكم على تمام خلق الروائى أو نقصانه . أو ربما خطّت الطبيعة فى أحد أحوالها الأقل عقلانية بحبر غير مرئى على جدران الذهن والوجدان إشارة غيبية يحققها أولئك الفنانون العظام ؛ رسماً مبدئياً ، كل ما يحتاجه للظهور هو أن يرفع أمام لهب الغبقرية .

وعندما يكشف عنه المرء ، ويراه حياً يضيح من شدة الفرح : ولكن هذا هو بالضبط ما شعرت به دائماً وعرفت ورغبت ! ويفيض المرء حماساً ويغلق الكتاب بنوع من التعظيم والإجلال وكأنه شئ ثمين جداً ونفيس ، يرجع له الإنسان للاستزاده مدى الحياة ، ويعيد المرء الكتاب إلى الرف ، هذا ما قلته لنفسى وأنا أعيد « الحرب والسلام » إلى مكانها .

أما إذا ، أثارت تلك الكلمات التى يضعها المرء تحت الاختبار ، لأول وهلة رد فعل سريع ومتحمس لما لها من ألوان بهيجة وحركة مقتحمة نشيطة . ثم توقفت عند هذا وبدا أن هناك ما يعوق تطورها : أو إذا ما أضاعت نقشاً باهتاً فى تلك الزاوية أو بقعة حبر فى تلك ولا يبدو بعد ذلك أى شئ متكامل تام ، هنا يتنهد المرء متحسراً ويقول : فشل آخر . هذه الرواية نُكبت وبَطُل سعيها . والواقع هو أن الروايات تفشل أغلب الوقت فى موضع ما . تتعثر المخيلة تحت الضغط الهائل . وتشوش البصيرة فلا تستطيع التمييز بين الخطأ والصواب ولا تقوى بعد قليل على المضى فى القيام بالجهد الجبار الذى يتطلبه فى كل لحظة استعمال هذا القدر المتنوع من الملكات . ولكن كيف يتأثر كل هذا بجنس كاتب الرواية البيولوچى ؟ ورحت أنظر إلى « چين إير » وكتب أخرى . هل يتدخل الجنس البيولوچى للكاتبة فيما أسميناه « تمام الخُلق » ؟ وهو العمود الفقرى للعمل التام المتكامل كما اتفقنا . إن الفقرات التى اقتبست منها فى حالة چين إير توضح أن الغضب كان يتلاعب بتمام الخُلق عند شارلوت برونتى الروائية . فقد تركت القصة التى كانت تكتبها ، والتى كانت تستوجب كل الإخلاص والانقطاع ، والتفتت إلى هم شخصى . تذكرت أنها حرمت من حقها فى التجربة – وفرضت عليها حياة راكدة فى دار خورى الأبرشية ، ترتق الجوارب فى الوقت الذى كانت تتوق إلى التجوال حرة فى العالم . فحادت مخيلتها بسبب السخط والغضب . ونحن نشعر عند القراءة بهذه الحيرة . ولكن ، كانت هناك أيضاً مؤثرات أخرى كثيرة إلى جانب الغضب تجذب مخيلتها وتشدها بعيداً عن طريقها المرسوم . صورة روتشستر على سبيل المثال ، صورة رسمت فى الظلام . ونحن نلمس تأثير الخوف فيها ؛ مثلما نشعر باستمرار بطعم الحموضة التى تنتج عن القهر ، عذاب دفين يتأجج تحت سطح العواطف المشبوبة ، حقد ما وضغينة تقلص تلك الكتب ، على روعتها ، بتشنجات الألم .

وبما أن للرواية ذلك التقابل مع الحياة فإن القيم التى تحملها هى إلى حد ما قيم الحياة الواقعية . ولكن من الواضح أن قيم النساء تختلف فى كثير من الأحيان عن القيم التى أقامها وصنعها الجنس الآخر ؛ وهو أمر طبيعى وبدهى . ولكن قيم الرجال هى التى تسود . وإذا أردنا مثالاً فجا سنقول إن لعب كرة القدم والرياضة من الأمور « المهمة » ؛ أما عشق الموضة وشراء الملابس فـ « تافه » . ويتم نقل تلك القيم بصورة حتمية ، لا مناص منها ، من الحياة إلى حيز الإبداع والتأليف . فيتوخى الناقد مثلاً الأهمية فى كتاب ما لأنه يتناول الحرب . ويحكم على كتاب أخر بعدم الأهمية لأنه يتناول مشاعر النساء فى الصالون . كما أن مشهداً فى ميدان القتال يعد أهم من مشهد فى محل أو دكان – فى كل مكان وبأشكال إشارية دقيقة ومتنوعة يدوم ويتمادى الاختلاف فى القيم . وبذا فإن ، بنية الرواية بأكملها ارتفعت بفعل ذهن (فى حالة ما إذا كان كاتبها امرأة) منجذب قليلاً عن الطريق المستقيم تحت وطأة ضرورة الانصياع إلى سلطة خارجية أثّرت فى وضوح الرؤية . وما على المرء إلا تصفح الروايات القديمة المنسية وأن ينصت إلى نبرة الصوت فيها ليستشف ويتخيل أن الكاتبة كانت تكتب فى مواجهة نقد ما ، أو أن ما تقول ينطلق من مبادرة عدوانية أو بغرض التوفيق والتصالح مع أمر ما مطروح خارج الرواية .

فنجدها فى لحظة تعترف أنها « مجرد امرأة » ، أو تعترض على أمر ما بقولها « مثلها مثل الرجل ». وقد واجهت الكاتبات النقد بما أملاه عليهن مزاجهن العصبى : بالخنوع على استحياء أو بالغضب والتأكيد . ولا يهم أى ردود الفعل تبنّين ، المهم هو أنهن كن يفكرن فى شئ خارج إطار العمل نفسه . ويسقط كتاب تلك الكاتبة على أم رأسنا وبه عيب فى نقطة منتصفه ومركزه . وفكرت فى كل الروائيات اللواتى تتناثر كتبهن مثل التفاحات المعطوبة الصغيرة فى البستان ، معروضة فى محال بيع الكتب المستعملة فى لندن . لقد كان العيب فى منتصفها ومركزها هو الذى تسبب فى عطبها وتعفنها . وكان ذلك العيب هو أنها حولت وحورت من قيمها نزولاً على رأى الآخرين .

ولكن ألم يكن من المستحيل بالنسبة لهن ألا يحدن يميناً أو يساراً . أى قدر من العبقرية وتمام الخلق كان يتطلبه مواجهة كل هذا النقد ، وسط ذلك المجتمع الأبوى الخالص ، والتمسك بما كانوا يرونه حقا ، دون أن ينكمشن ويتراجعن . لم تتمسك هكذا سوى چين أوستن وإميلى برونتى . ولذا فهُن يحملن نيشاناً آخر ربما كان أرقى ما يحملن من نياشين ألا وهو أنهن كتبن كما تكتب النساء ، لا كما يكتب الرجال .

ودون الآلاف من النساء ممن كتبن الروايات ، كن الوحيدات اللواتى تجاهلن تماماً النصائح الأزلية للمعلمين المتنطعين – اكتبى كذا ، فكرى هكذا . كن الوحيدات اللواتى أدرن أذناً صماء لهذا الصوت الممتد ، المُصر ، المتواصل الذى يزمجر أحياناً ، ويتعطف أحيانا ، يسيطر متجبراً أحياناً ، جزعاً حزيناً أحياناً ، مستاء مصدوماً أحياناً أو غاضباً ، ذلك الصوت الذى لا يسعه ترك النساء فى حالهن ، وراءهن .

باستمرار ، مثل مربية مخلصة لعملها أكثر من اللازم ، تناشد و تستحلف ، مثل السير إيجرتون بريدجز ، من أجل التهذيب والتثقيف ؛ فهو الذى خلط نقد الشعر بنقد جنس النساء[1] . ونصحهن بأن يبقين داخل الحدود التى يراها أولئك النقاد ملائمة ، فلو أنهن مثلاً فزن بجائزة لامعة - « ..... على الروائيات ألا يتطلعن إلى الكمال إلا من خلال الاعتراف الشجاع بمناحى القصور التى يعانى منها جنسهن »[2] .

إن مثل تلك الاقتباسات تضع أمامنا المسألة فى اختصار مفيد ، فإذا ما قلت لكن أن تلك الجملة كتبت لا فى أغسطس ١٨٢٨ وإنما فى أغسطس ١٩٢٨ سوف تندهشن ولكنكن سوف توافقننى ، فيما أظنه ، أنها جملة تمثل كيانا هائلاً من الآراء التى تعارفنا على وجودها ، حتى ولو بدت لنا اليوم طريفة - ولكن لن أقلب عليكن المواجع .

ولن أتعامل سوى مع تلك الآراء التى تقذفها لى الصدفة - وقد كانت تلك الآراء أكثر حيوية وأعلى صوتا قبل قرن من الزمان . كان يتوجب على المرأة الشابة فى ١٨٢٨ أن تكون باسلة ، رابطة الجأش كى تستطيع أن تتجاهل معاملة الاحتقار والإنكار والنهر والزجر والوعود كذلك والجوائز ، بل أن تكون محركة للشر ، مسعرة للفتنة فتقول لنفسها :

ولكنهم لا يستطيعون شراء الأدب كذلك . إن الأدب للجميع ولن أسمح لكم ، حتى لو كنتم حراساً للكليات فى الجامعة ، أن تنحونى عن السير على النجيل فلتغلقوا وتوصدوا مكتباتكم دونى ولكن لا يوجد باب ، ولا قفل ولا مزلاج تستطيعون به أن تقيدوا حرية عقلى .

مهماً كان تأثير التثبيط والنقد الذى لاقته النساء على كتاباتهن - واعتقادى أنه كان تأثيراً عظيماً - فإنه يظل غير ذى أهمية إذا ما قورن بصعوبة أخرى واجهنها (كنت ما زلت أتأمل أحوال كاتبات القرن التاسع عشر) . وهى صعوبة تتمثل فى اللحظة التى كن يبدأن فيها نقل أفكارهن إلى الورق . تلك الصعوبة هى غياب تراث خلفهن . أو أن تراثهن كان من القصر والجزئية بحيث أنه لم يكن ليسعفهن . نحن نفكر من خلال تاريخ أمهاتنا لو كنا نساء . ومن العبث أن نلجأ إلى العظماء من الكتاب من الرجال نطلب العون فى هذا المضمار ، وأن سعينا إليهم من أجل المتعة العقلية . إن لامب وبروان وثاكرى ونيومان وستيرن وديكنز ودى كوينسى - أياً من كان - لم يساعد امرأة قط ، قد تكون تعلمت منهم امرأة ما بضع حيل وطوعتها لاستخدامها ، ولكن هذا هو كل ما هنالك .

---

(١) « هى » لها غرض ميتافيزيقى و « هو » وسواس خطر ، فى حالة المرأة بالذات ، وذلك لأن النساء نادراً مايمتلكهن حب الرجال الصحى للخطابة . وهو نقص غريب فى هذا الجنس الذى هو جنس أكثر بدائية ومادية فى أشياء أخرى .

New Criterion , June 1928

مجلة كرايتريون الجديدة ، يونيو ١٩٢٨ .

(٢) فلو أنكم مثل كاتب هذا المقال تعتقدون أن الروائيات عليهن التطلع إلى الكمال فقط من خلال الاعتراف الشجاع بنواحى النقص فى جنسهن فإن جين أوستن أثبتت كيف من الممكن القيام بمثل هذا على نحو بارع الجمال والرشاقة .... ،

Life & Letters . August 1928.

الخطابات والحياة ، أغسطس ١٩٢٨ .

إن اتساع خطو ذهن الرجل وسرعته أو ثقله يختلف جد الاختلاف عن ثقل ذهنها وسرعته واتساع خطوته فلا تستطيع الأخذ عنه أى شئ ، ذى قيمة ، بنجاح . القرد أبعد من أن يكون مجتهداً مثابراً . وربما كان أول ما ستجده وهى تضع القلم على الصفحة هو أنه لا توجد فى كتب هؤلاء الرجال جملة مشتركة متوفرة لاستخدامها . لقد كتب كل الروائيين العظام مثل ثاكرى وديكنز وبلزاك نثرا طبيعيا ، سريعا ولكنه متقن ، معبراً ولكنه ليس غزيراً أو نفيساً ، مصبوغاً بلونهم الخاص ولكن له خاصية الملكية العامة .

وقد أسس هؤلاء نثرهم هذا على الجملة المتداولة في وقتهم ، وكانت فى بداية القرن التاسع عشر أشبه بالآتى :

« ولقد كانت عظمة أعمالهم موضع نقاش داخلهم ، لا أن نقف عند حد معين ولكن أن نستمر ، ولم يكن بهم شغف أكبر ولا رضا أعظم من أن يمارسوا فنهم وأجيال لا متناهية من الحق والجمال . إن النجاح يشجع على بذل الجهد ؛ والعادة تسهل من أمر النجاح » .

تلك هى جملة من كتابة رجل ، ونستطيع أن نلمح من ورائها جونسون وجيبون والآخرين . كانت جملة غير ملائمة لاستخدام النساء . وقد تعرت وسقطت شارلوت برونتى بكل مالها من موهبة فذة ورائعة في كتابه النثر ، وهى تمسك بمثل تلك الأداة المربكة فى يدها . كما اقترفت جورج إليوت بها فظاعات تفوق الوصف . أما جين أوستن فنظرت إليها وضحكت منها ثم ابتدعت جملة طبيعية تماماً رشيقة وملائمة لاستخدامها هى ولم تحد عنها .

وهكذا ، وعلى الرغم من أن كتابتها أدنى عبقرية من شارلوت برونتى فقد كان فى وسعها أن تقول أكثر منها بمراحل ، والحق يقال . إن غياب التراث الكتابى هذا وضآلة الأدوات ولا اكتمالها كان له أثر واضح على ، كتابة النساء ، وذلك بما أن حرية التعبير وامتلائه هى جوهر كل فن ، أضف إلى ذلك أن الكتاب ليس عبارة عن نهاية جملة مصفوفة إلى جانب الأخرى ولكن جملاً مبنية ، إن صح التعبير ، على هيئة قباب وممرات مسقوفة . وحتى تلك الأشكال قام بصنعها الرجال ونبعت من احتياجاتهم ولاستخداماتهم الخاصة . وليس هناك ما يجعلنا نعتقد أن شكل الملحمة أو المسرحية الشعرية يلائم المرأة أكثر مما تلائمها الجملة التى من صنع رجل . ولكن كل الأشكال الأقدم من الأدب قد عينت وتثبتت

قبل أن يكون فى وسع المرأة أن تصبح كاتبة . الرواية وحدها كانت جنساً من الحداثة الزمنية بحيث أمكن لها أن تكون طيعة فى يدها - وهو السبب الآخر الذى جعلها تكتب الرواية . ولكن من ذا الذى يستطيع الجزم بأن " الرواية " وحتى الآن . . . (لقد أضفت علامات التنصيص حول كلمة الرواية ، لإبراز حسى بقصورها عن الاضطلاع بالمعنى) من ذا الذى يقول إن هذا الشكل الطيع ملائم تماما لاستخدام المرأة ؟ لا شك أننا سنجدها تشكل الرواية بطريقتها عندما تملك الحرية اللازمة لذلك ، وبذا توفر لنا وسيلة ، ليست بالضرورة شعرية ، للشاعرية التى تكمن فيها . وذلك لأن ما ينكر على المرأة بالتحديد هو الشعر . ووجدتنى أتساءل عن الكيفية التى قد تكتب بها امرأة اليوم تراجيديا شعرية من خمسة فصول . وهل تستخدم الشعر - أم أنها تفضل النثر ؟

ولكن تلك ، كلها ، أسئلة صعبة تقع فى خبايا المستقبل وعلى أن أتركها . لا لسبب إلا لأنها تشجعنى على السير بعيداً عن موضوعى إلى غابات بلا طرق ، حيث قد أتوه عن مقصدى بل قد تلتهمنى الوحوش المفترسة . أنا لا أريد ، وعلى قناعة أنكن أيضاً لا تردننى أن أفتح ذلك الموضوع الكئيب : مستقبل القصص الروائى . ولذا ، فإنى لن أتوقف سوى برهة لألفت نظركن إلى الدور العظيم الذى يتوجب القيام به فى المستقبل طالما أن النساء مهتمات بالظروف الفيزيقية . فالكتاب عليه أن يتكيف على نحو ما مع الجسد وأغامر بالقول إن على كتب النساء أن تكون أقصر ، وأكثر تكثيفاً عن كتب الرجال ومؤطرة على نحو لا يستدعى العمل المتصل المنتظم لساعات طوال . لأنهن سيقاطعن بالتأكيد . من ناحية أخرى ، يبدو أن الأعصاب التى تغذى الدماغ تختلف فى النساء عنها فى الرجال وإذا كنا نريد لهن أن يعملن بأقصى ما لديهن من جهد وإتقان ، فعلينا أن نجد المعاملة التى تلائمهن أكثر ، ونحقق فيما إذا كانت الساعات الطويلة من المحاضرات التى ابتدعها الرهبان من مئات السنين مثلاً توافقهن . وما نوع التداول والتبادل بين العمل والراحة الذى يحتَجْنه ، هذا على اعتبار أن الراحة قد لا تعنى عمل "لا شئ" ولكن عمل شئ مختلف ، وما وجه الاختلاف المطلوب ؟ علينا اكتشاف كل هذا ومناقشته ؛ فكل هذا جزء من مسألة النساء والكتابة القصصية الروائية . ولكن ، مضيت وأنا أتقدم نحو أرفف الكتب مرة أخرى أتساءل ؛ أنّى لى أن أجد دراسة وافية عن سيكولوجية النساء كتبتها امرأة ؟ ربما لن يسمح للنساء بمزاولة مهنة الطب بسبب عدم قدرتهن على لعب الكرة القدم .

لقد اتخذت أفكارى هنا منعطفاً آخر ، لحسن الحظ .

وصلت أخيراً فى تجوالى إلى الأرفف التى تحمل كتباً كتبها نساء ورجال ما زالوا على قيد الحياة . إن أعداد الكتب التى تكتبها النساء الآن توازى عدد ما يكتبه الرجال تقريباً .

إو إذا كان ذلك غير صحيح تماماً ، وأن الرجال مازالوا أكثر إنتاجاً ، فالنساء بالتأكيد الآن لا يكتبن الروايات فقط . هناك ،كتب جين هاريسون عن الأركيولوجيا الإغريقية ، وكتب فيرنون لى فى علم الجمال وكتب جيرترود بل عن إيران . هناك كتب فى شتى المواضيع ، ما كان يمكن أن تقترب منها امرأة من جيل واحد مضى . هناك قصائد ومسرحيات وكتب فى التاريخ والسير ، كتب فى أدب الرحلات وكتب فى البحث العلمى والأكاديمى ، بل إن هناك عددا من الكتب فى الفلسفة فى الاقتصاد والعلوم . ومع أن الروايات تسود إلا أن الروايات ذاتها تغيرت بفعل ارتباطها بكتب من نوع آخر . ربما تكون البساطة الطبيعية فى العصر الملحمى لكتابة المرأة* قد اختفت ، وقد تكون القراءة والنقد قد أعطت الروائية مدى أوسع ورهافة حس أكبر . وقد يكون التوجه التلقائى إلى كتابة السيرة الذاتية قد نفذ . قد تكون - المرأة - بدأت فى استخدام الكتابة بوصفها فناً لا وسيلة للتعبير عن الذات ، قد يجد المرء وسط تلك الروايات الجديدة رداً على كثير من الأسئلة المشابهة .

والتقطت واحداً من تلك الكتب دون أن أقصد كان فى نهاية الرف ويحمل عنوان " مغامرة الحياة " أو ما شابه ذلك ، بقلم مارى كارمايكل ونشر فى هذا الشهر ، أكتوبر . يبدو أنه كان أول كتبها ، قلت لنفسى ، ولكن على المرء أن يقرأه وكأنه آخر جزء فى سلسلة طويلة نوعاً ما ومكملاً لكل تلك الكتب الأخرى التى كنت أتطلع فيها - قصائد الليدى ونستشيلى ومسرحيات أفرا باهن وروايات الأربع الكبريات . وذلك لأن الكتب تكمل بعضها البعض على الرغم من عاداتنا المتعارف عليها فى الحكم عليها فرادى . علىّ كذلك أن أتأملها - تلك المرأة المغمورة - بسليلة كل الأخريات اللواتى ألقيت نظرة على ظروفهن كى أرى ما الذى ورثته من خصال وتقيدات . وهكذا ، أطلقت زفرة لأن الروايات كثيراً ما تكون تطبيبا للخاطر وسلوى للنفس لا ترياقاً أو علاجاً شافياً ؛ فهى تنزلق بنا إلى نعاس خامل بدلاً من أن توقظنا بجذوة مضطرمة . وهكذا جلست ومعى نوتة ؛ وقلم رصاص لأدرس رواية مارى كارمايكل الأولى " مغامرة الحياة " .

---

* تعبير يطلق على القرن التاسع عشر .

بداية مررت ببصرى على الصفحة من فوقها لتحتها . وقلت لنفسى : سوف أتعرف على الكيفية التى تكتب بها جملها أولاً قبل أن أشغل ذاكرتى بألوان العيون : زرقاء وبنية ، والعلاقة التى من الممكن أن تربط "كلوبى" وروجر . فسوف يتوفر الوقت لتذكر مثل تلك الأمور بعد ما أقرر إذا كانت مارى كارمايكل تحمل فى يدها قلماً أم معولاً . وقمت باختبار جملة أو اثنتين على لسانى . وسريعاً ما اكتشفت أن شيئاً ما لا يستقيم ، وتعرقل انزلاق الجمل الناعم الواحدة تلو الأخرى . شئ ما تمزق ، شئ ما خرمش ؛ أبرقت فى عينى شعلة من كلمة هنا وهناك كانت تفلت من نفسها كما كانوا يقولون فى المسرحيات القديمة . كانت مثلها كمثل شخص يشعل عود ثقاب لا يشتعل ، ولكن لماذا ؟ وجدتنى أسألها وكأنها موجودة أمامى ، أليست جمل جين أوستن مناسبة لك ؟ هل علينا محوها لأن إيما والسيد " وودهاوس " ماتوا ؟ زفرت آسفة ، ياللأسف أن يكون الأمر كذلك . ففى حين تنطلق جين أوستن من نغمة إلى نغمة مثلما ينتقل موتسارت من أغنية لأغنية ، نجدنا ونحن نقرأ لمارى كارمايكل كأننا فى مركب مكشوف فى عرض البحر ، نتأرجح صعوداً وهبوطاً . ذلك الاقتضاب ، وضيق النفس قد يعنى أنها خائفة من شئ ما ، خائفة من أن يقال عنها إنها سانتمنتالية ، مثلاً ، أو أنها تتذكر أن كتابة النساء كثيراً ما قيل إنها مزخرفة وردية ولذا فهى توفر أشواكاً زائدة عن الحاجة . ولكننى لن أستطيع الحكم عليها ما إذا كانت نفسها أو أنها تقلد آخرين إلا بعد أن أكون قرأت مشهداً من الرواية بحرص . وعلى كل حال فهى لا تستنفد حيوية المرء ، أو هذا ما تراءى لى وأنا أقرأ بحرص أكبر ، ولكنها تراكم عددا ضخما من الحقائق لن تستطيع استخدامها كلها فى كتاب بهذا الحجم ، وكان في نصف حجم جين إير . ومع هذا فقد نجحت على نحو أو آخر فى أن تضعنا جميعاً "روجر و كلوبى ، وأوليفيا وتونى والسيد بيجهام - فى قارب حملنا أعلى النهر . انتظرى لحظة ، قلت لنفسى وأنا أضطجع على كرسى : تمل فى هذا الأمر قبل المضى أبعد من هذا .

أكاد أجزم ، قلت لنفسى ، إن مارى كارمايكل تحتال علينا على نحو ما . لأنى أشعر كما يشعر المرء فى قطار الملاهى الذى بدلاً من أن يهبط فى لحظة ما يصعد فى الاتجاه المعاكس . إن مارى تتلاعب بتسلسل الأحداث المتوقع . فبادى ذى بدء كسرت الجملة ؛ والآن تكسر التسلسل الطبيعى . حسنا ، لها كل الحق فى أن تفعل هذا وذاك إذا كانت تفعله لا من أجل التحطيم ولكن من أجل الخلق ، ولكنى لن أتأكد حتى تواجه نفسها فى الموقف ؛ ولتصنع به علباً من الصفيح أو براداً قديماً للشاى ؛ ولكن عليها أن تقنعنى أنها تؤمن وتعتقد أن ما تقدمه لى هو موقف ، وبعد أن تكون قد صنعته عليها أن تواجهه .

عليها أن تقفز . أما وقد عزمت على القيام بواجبى نحوها كقارئة لو أنها قامت بواجبها ككاتبة ، قلبت الصفحة وقرأت . . . .

« عفواً إن أنا توقفت هكذا فجأة . ولكنى هل يوجد رجال بينكن ؟ هل تؤكدن لى أن السير تشارلز بيرون لا يختبئ وراء ذلك الستار الأحمر ؟ تؤكدن لى أننا جميعاً نساء هنا ؟ فى تلك الحالة أستطيع أن أقرأ عليكن كلماتها التالية – " كلوبى كانت تحب أوليفيا . . .

لا تنزعجن ولا تحمر وجوهكن . ودعونا نعترف فى خصوصية اجتماعنا هذا أن مثل تلك الأشياء تحدث . أحياناً تحب النساء بعضهن البعض » .

وقرأت ثانية « كلوبى كانت تحب أوليفيا " وبعدها هالنى التحول العظيم الذى تمثله تلك الجملة . إن كلوبى أحبت أوليفيا ربما للمرة الأولى فى الأدب على الإطلاق . كليوباترة لم تحب أوكتافيا . وكم كانت المسرحية ، أنطونيو وكليوباتره ، ستختلف لو أنها فعلت ! إن الأمر يرمته ، قلت وقد سمحت لذهنى أن يشرد قليلاً عن " مغامرة الحياة " – مبسط على نحو مختزل ومحجم بقواعد العرف والتقليد ، على نحو ، لو تجرأنا بالقول ، سخيف . إن الشعور الوحيد الذى تكنه كليوباتره لأوكتافيا هو الغيرة ! هل هى أطول منى ؟ كيف تصف شعرها ؟ ربما لم تتطلب المسرحية أكثر من هذا . ولكن كم هو مثير لو أن العلاقة بين المرأتين كانت أكثر تعقيداً . كل تلك العلاقات بين النساء – فكرت وأنا أسترجع بسرعة الأعداد الغفيرة من النساء اللواتى يقطن دهاليز الأدب الباهرة ، كلها علاقات بسيطة . لقد ترك الكثير جداً دون ذكر ، دون الاقتراب بالمحاولة . وحاولت أن أتذكر في كل ما قرأت علاقة صداقة تربط بين امرأتين . هناك محاولة فى " ديانا مفترق الطرق " Diana of the Crossroads أما لدى راسين وفى التراجيديات الإغريقية فهن موضع أسرار بعضهن البعض وهن من حين لآخر أمهات أو بنات . ولكن وبلا استثناء تقريباً لا تظهر النساء إلا من خلال علاقتهن بالرجال . هو شئ يدعو للعجب لو فكرنا فيها : إن كل نساء الأدب العظيمات وحتى وقت جين أوستن لا يقدمن لنا إلا من خلال عيون الجنس الآخر فقط . كما أنهن لا يقيمن إلا من خلال علاقتهن بالجنس الآخر . مع أن نسبة ذلك الحيز من مجمل حياة المرأة ضئيل جداً ؛ وكم ضئيل هو ما يستطيع معرفته الرجل من خلال النظارة السوداء أو الوردية التى يضعها الجنس أمام عينه . لربما كان ذلك هو السبب وراء الطبيعة الغريبة للنساء فى القصص والإبداع فهن دائماً متطرفات إما فى جمالهن أو فظاعتهن – فهكذا يراها العاشق فى تأجج ولهه أو انطفائه ، فى سعادة الحب أو شقائه . لا ينطبق هذا على روائى القرن التاسع عشر بالطبع . هناك تصبح النساء أكثر تنوعاً

وتعقيداً . بل إنه من الجائز أن تكون رغبة الكتابة عن النساء هى ما جعلت الرجال يتخلون بالتدريج عن الدراما الشعرية ، لأن ما تحمله تلك الدراما لم يكن لهن فائدة فيها . وبذا ابتدعوا الرواية كإناء أكثر ملائمة لتلك الرغبة . وفى الرواية فى كتابات " بروست " حتى ، يظل واضحاً أن الرجل معوق متعصب فى معرفته بالنساء ، والعكس كذلك صحيح .

استدركت وأنا أعود إلى كتاب مارى كارمايكل أن الملاحظ الآن هو أن النساء مثل الرجال ، لهن اهتمامات أخرى إلى جانب الاهتمامات الأزلية ، العائلة والبيت والحب ، الزواج وكانت كلوبى تحب أوليفيا ! وكن يشتركن فى المعمل نفسه ... ! ولما واصلت القراءة اكتشفت أن الشابتين كانتا تفرمان الكبد لاستعمالها دواء لعلاج الأنيميا ، فيما يبدو . مع أن واحدة منهن كانت متزوجة ولها فيما أظن – طفلان صغيران – ولكن كل ذلك يترك جانباً . ولذا فإن الصورة الباهرة للمرأة فى القصص كانت بسيطة جداً رتيبة للغاية . ولنفترض على سبيل المثال أن الرجال ما كانوا يمثلون فى الأدب إلا بوصفهم عشاقاً للنساء أى ليس بوصفهم أصدقاء لرجال آخرين ، أو جنودا أو مفكرين أو حالمين ، كم كانت ستضاءل الأدوار التى تكتب لهم فى مسرحيات شكسبير ، وكم كان الأدب ليعانى من مثل ذلك الافتقار ! كنا نفوز ربما بمعظم " عطيل " وجزء لا بأس به من " أنطونيو " ولكن لم يكن ليبقى لنا الكثير من قيصر أو بروتوس أو هاملت أو لير أو چاك – ولأصبح الأدب فقيرا من جراء ذلك أيما فقر ، مثلما هو بالفعل فقير بأكثر مما نتخيل بسبب الأبواب التى أوصدت فى وجه النساء . وكيف كان للكاتب المسرحى أن يعطينا فكرة كاملة وحقيقية ومثيرة للاهتمام عن النساء إذا كن يزوجن رغماً عنهن ويبقين حبيسات غرفة واحدة وانشغال واحد ؟ لقد كان الحب بالطبع هو وسيلة التأويل الوحيدة ، فى حالة النساء . كان الشاعر مضطراً إما إلى المرارة أو الوله . إلا إذا اختار قصداً أن ، يكره النساء ، وهو ما يعنى فى غالب الأمر أنه لم يكن جذاباً بالنسبة لهن على أية حال .

أما وقد كانت كلوبى تحب أوليفيا وأنهما معاً فى معمل واحد ، فإن ذلك فى حد ذاته يجعل صداقتهن أكثر تنوعاً وأطول عمراً لأنها أقل خصوصية . لو أن مارى كارمايكل كاتبة جيدة ، وكنت قد بدأت الاستمتاع بأسلوبها فى بعض خصائصه ، ولو كان لها غرفة تخصها وحدها ،، وهو ما ليس مؤكد لى ! لو أن لها خمسمائة جنيه فى السنة لا يشاركها فيها أحد – وهو أمر يحتاج إلى إثبات – لكنا إذا أمام حدث غاية فى الأهمية . وذلك لأن فى مقدور مارى كارمايكل – لو أنها استطاعت التعبير الجيد عن علاقة كلوبى وأوليفيا – أن تضئ لنا حجرة كبيرة فى مجال الأدب ظلت مظلمة لم يطئها أحد . حجرة تغشاها

الظلال الكثيفة والأضواء الباهتة ، تشبه الممرات الملتوية داخل الكهوف ويدخلها المرء حاملاً شمعة متلفتاً متحرياً موضع قدمه التالى فى توجس . وبدأت قراءة الكتاب مرة ثانية ، وقرأت كيف نظرت كلوبى إلى أوليفيا وهى تضع برطماناً على الرف ، وتقول إن الوقت حان للعودة لأطفالها فى البيت . إن مثل ذلك المشهد لم يشهده أحد منذ بداية الخليقة ، قلت لنفسى فى دهشة . ولذا تطلعت بشغف إلى ما تلا ذلك المشهد ، وكنت أود أن أعرف كيف كانت مارى كازمايكل ستتعامل مع كل تلك الحركات التى لم يوثقها أحد من قبل . كيف سيتسنى لها الإمساك بها وبالكلمات التى لم تنطق ، أو ينطق بها جزئياً والتى تتشكل بهلامية كظلال الفراشات على سقف غرفة ما ، عندما تكون النساء وحدهن غير مسلط عليهن الضوء المتقلب الألوان الذى يسلطه عليهن الرجال . لو أنها قامت بهذا الفعل ، عليها أن تحبس أنفاسها ، قلت فى سرى ، فالنهاء يرتبن من أى اهتمام لا يكون وراءه هدف واضح يحركه ، واعتدن على نحو بشع القمع والكبت والمداراة ؛ حتى إنهن يهربن من لحظة تنطلق فيها عين فى اتجاههن وتراقبهن . إن الطريقة الوحيدة التى تستطعين بها فعل هذا ، قلت متوجهة لمارى كارمايكل بالحديث وكأنها تسمعنى ، هو أن تتحدثى عن شئ آخر ، انظرى عبر النافذة وسددى نظرة ثابتة ولاحظى ، لا بورقة وقلم فى يدك ، ولكن بأقل الكلمات وأكثر الجمل اختزالاً ذلك الذى يحدث لأوليفيا – ذلك الكائن الحى الذى ظل قابعاً تحت صخرة ملايين من السنين – ماذا يحدث عندما يقع على هذا الكائن شعاع ضوء ويرى قطعة من الغذاء – المعرفة – الفن – المغامرة ، تمتد بها يد إليه . لابد أنها سوف تتجه لها هى الأخرى ، ورفعت عينى من على الصفحة ، ولكن لابد لها فى تلك الحالة أن تبتدع تركيبة جديدة تماماً من منابعها حسب ملكاتها التى تطورت تطوراً رفيعاً ، وفقاً لمتطلبات وأغراض أخرى ، حتى يتسنى لها أن تمتص القديم فى الجديد دون أن تقلقل أو تربك التوازن اللا متناهى الرهافة ، المعقد ، الموشى ، الإجمالى .

ولكن ، ويلاه ، لقد فعلت ما كنت عاقدة العزم ألا أفعله : لقد انزلقت دون تكفير فى مدح جنسى فاستخدمت كلمات لا يمكن إغفال قدر المديح فيها : " رهافة لا متناهية " و " تطور رفيع " . إن ألفاظ المديح تلك ، دائماً ما يكون مشكوك فى أمرها ، وكثيراً ما تكون سخيفة ؛ أضف إلى ذلك كيف يبررها المرء فى حالة كهذه؟ إننا لا نستطيع الذهاب إلى الخريطة ونشير إلى أمريكا فنقول : لقد اكتشف كولومبوس أمريكا وكان كولومبوس امرأة . أو أن نأخذ تفاحة ونقول اكتشف نيوتن قانون الجاذبية وكان نيوتن امرأة ؛ أو أن ننظر إلى السماء ونقول إن الطائرات التى تحلق فوقنا هى من اختراع النساء . أى أنه

ليس هناك علامة على الحائط نستطيع أن نقيس عليها إنجاز النساء بدقة . ليس لدينا مقياس نستطيع أن نقيس وفقاً لنظامه وعلاماته المحددة ، صفات الأم الطيبة أو إخلاص وتفانى الابنة أو الأخت أو قدرات مديرة المنزل حتى . قليلات جداً وحتى الآن قيمتهن الجامعات ؛ كما أن المهن العظمى من عسكرية وبحرية وتجارية وسياسية ودبلوماسية لم تمتحن فيها قدراتهن بعد . والنساء حتى الآن غير مصنفات تقريباً في حين أننى لو أردت أن أعرف كل ما يمكن لإنسان أن يعرفه عن السير هولى بانسن مثلاً ، فكل ما على عمله هو أن أفتح " بيرك " أو " دييرت " لأعرف أنه حصل على تلك الشهادة أو تلك ؛ وأنه يمتلك بيتاً عظيماً ، وله وريث ، وأنه كان سكرتيراً لمجلس الإدارة ، وأنه مثل بريطانيا لدى كندا ، وحاز على عدة جوائز وشغل عدة مناصب وحصل على النياشين وكرم بوسائل أخرى ، وبهذا تكون مزاياه وأفضاله قد رسمت عليه ولا يمكن محوها . إن القدرة الإلهية وحدها يمكنها أن تعلم أكثر مما أعلم عن السير هولى باتس ، لو أردت .

ولذا ، فإننى عندما أستعمل لفظاً مثل " تطور رفيع " أو " رهيفة رهافة لا متناهية " لدى الحديث عن النساء لا أستطيع التأكيد على كلامى من خلال الوثائق الرسمية : "دييرت" ، "ويتاكر" أو الروزنامة الجامعية ، ماذا عساى أن أفعل فى مثل هذا المأزق ؟ ونظرت مرة أخرى إلى أرفف الكتب . هناك وجدت سيراً لحياة چونسون وجوته وكارلايل وستيرن وكاوبر وشيللى وفولتير وبراوننج وآخرون كثيرون . وبدأت أفكر فى كل هؤلاء الرجال العظام الذين لسبب أو آخر أعجبوا بأشخاص من الجنس الآخر ، وعاشوا معهن ، وسعوا إليهن ، وأسرّوهن أسرارهم ، ومارسوا معهن الحب ، وكتبوا عنهن ووثقوا فيهن وأظهروا ما لا يمكن وصفه إلا بأنه نوع من الاعتماد والحاجة إليهن . وبالطبع لا أستطيع الجزم بأن كل تلك العلاقات كانت أفلاطونية ، وهو ما قد ينكره السير ويليام چونسون هيكس . ولكننا نكون ظالمين لأولئك الرجال أيما ظلم لو نصر على أنهم لم يأخذوا من تلك العلاقات سوى الراحة والمديح ومباهج الجسد . إنما أخذوا ، وهذا أمر مفروغ منه ، ما لم يكن بوسع من هم من جنسهم أن يقدموه لهم . ولو أردنا تعريف هذا الشئ على نحو أقرب ، ربما قلنا دون أن يكون ذلك من التهور فى شئ ودون أن نقتبس عن الشعراء كلماتهم مفرطة الحماسة ، أنه دافع وباعث على تجديد القوى الإبداعية التى لا يمنحها إلا الجنس الآخر ، فالرجل قد يدفع باب حجرة الصالون أو حجرة الأطفال ويجدها وسط أولادها ، ربما ، أو تجلس وقد وضعت على ركبتيها قطعة من القماش تطرزها ، على كل حال يجدها فى المركز من نظام للحياة مختلف كل الاختلاف عن نظام عالمه هو ، الذى قد

يكون المحكمة أو مجلس النواب ، فينعشة فى الجال ذلك الإختلاف ويجدد نشاطه . ويتبع ذلك ، حتى من خلال أبسط الأحاديث ، اختلاف طبيعى فى الرأى يخصب أراءه اليابسة مرة أخرى . ويبعث منظرها ، وهى تبدع فى مجال مختلف عن مجاله ، حياة متجددة ، ويغذى ملكاته الإبداعية حتى إن ذهنه يبدأ دون وعى فى التخطيط والعمل . وقد يجد الجملة أو الكلمة أو المشهد الذى كان يبحث عنه وهو يضع قبعته على رأسه ويستعد لزيارتها . لكل قيس ليلاه * ويستمسك بها لأسباب شبيهة بتلك التى سقناها . فإذا تزوجت ليلى (كما تزوجت ثريل حبيبة جونسون من أستاذ الموسيقى الإيطالى جن جونسون) استشاط غضباً وقرفاً ، ولم يكن ذلك فقط لأنه سيفتقد أمسياته اللطيفة معها فى بيتها في ستريتهام ولكن لأن نور حياته أطفئ (كما قال) . وقد يشعر المرء – دون أن يكون بالضرورة د . جونسون أو جوته أو كارلايل أو ڤولتير ، وإن اختلفت مشاعره عن العظام هؤلاء – بسطوة تلك الملكة وعلو مكانتها بين النساء وطبيعتها الرهيفة المعقدة . تدخل امرأة غرفة ما – ولكن اللغة الإنجليزية تعانى قصورا فى هذا الموقف فتحتاج إلى سلسلة من الكلمات المتشابكة ، تولد دون شرعية مسبقة ، حتى تستطيع أية إمرأة أن تصف ذلك الذى يحدث عندما تدخل غرفة ما . فالغرف تتبابين بشدة . الغرف إما هادئة أو عاصفة ، مفتوحة على البحر أو على العكس مفضية إلى ساحة سجن ، بها حبل غسيل أو تعج بالحرير والأحجار الكريمة ، فى خشونة شعر الخيل أو فى نعومة الريش – وليس على المرء سوى دخول أى غرفة فى أى شارع حتى تلفحه كل تلك القوى الأنثوية المعقدة للغاية . وكيف يكون الأمر غير ذلك ؟ لقد ظلت النساء ملايين السنين قابعات داخل المنازل حتى إن الحوائط ذاتها تشربت قواهن الإبداعية ، وهو ما أرغم الطوب والأسمنت على احتواء تلك القوى فى الأقلام والفرشاة ، والتجارة والأعمال ، والسياسة . ولكن تلك القوى الإبداعية تختلف كثيراً عن قدرات الرجل الإبداعية . ولا يسعنا إلا القول إن إهدارها أو إعاقتها يدعو للأسف آلاف المرات ، فقد اكتسبتها النساء عبر مئات السنين من الترويض والتدريب والانضباط وليس هناك ما يحل محلها . كم يكون مؤسفاً بعد كل هذا أن تكتب النساء كما يكتب الرجال ، أو تعيش النساء كما يعيش الرجال ، أو أن يشبهن الرجال . فلو كان جنسان فقط غير كافيين ، بالنسبة إلى وسع العالم وتنوعه ، ماذا عسانا نفعل لو كنا جنسا بيولوجيا واحداً لا غير . ألا يجب على التربية والتعليم أن يبرزا ويؤكدا الاختلاف بدلا من أن يؤكدا التشابه ؟ وذلك لأن لدينا من التشابه ما هو أكثر من اللازم . ولو أن مكتشفاً عاد لنا بما يؤكد أن أجناسا بيولوجية

* تلك هى المرة الوحيدة خلال هذا النص الذى لجأت فيه إلى تعريب صورة على هذا النحو وقد قمت بذلك وفاء للمعنى الذى كان يعتم لو ترجمنا حرفيا Every Johnson has his Thrale

أخرى تتطلع من خلال أغصان أشجار لا تشبه أشجارنا ، إلى سماوات أخرى ، غير سمائنا ، لكان فى ذلك خدمة جليلة للإنسانية ؛ ولكان وهبنا إضافة إلى ذلك بهجة أخرى هي بهجة رؤية البروفيسور وهو يهرع إلى مقاييسه ليثبت أنه أفضل من تلك الكائنات .

ويجدتنى أفكر وأنا مازلت أحوم على بعد من الصفحة ، إن عمل مارى كارمايكل سوف يُفضَّل على قدر المتفرج ، وخوفى أنه قد يغريها أن تصبح ما أعتقد أنه الفرع الأقل إثارة بين جنس الروائيين ؛ أى تصبح روائية طبيعية « عالمة» بدلاً من روائية متأملة تمعن الفكر ، فهناك حقائق جديدة ، كثيرة ، عليها ملاحظتها . وهى لن تحتاج أن تقصر جهودها على بيوت الطبقة المتوسطة العليا المحترمة بل عليها أن تذهب إلى تلك الغرف الصغيرة المعطرة ، حيث تجلس المومس المحظية والسيدة المهذبة مع كلبها الصغير ذى الأنف الأفطس ، تفعل ذلك بلا تنازل أو تواضع ودون الحاجة إلى مشاعر طيبة ، ولكن بروح الزمالة والرفقة . فهن مازلن يجلسن هناك فى الغرف الصغيرة فى ملابسهن الخشنة المصنوعة الجاهزة للاستعمال التى اضطر أن يضعها على أكتافهن بحكم الضرورة الكُتّاب من الرجال . ولكن مارى كارمايكل سوف تخرج مقصها وتعيد تفصيل تلك الملابس وتصلحها حتى تليق وتتلائم مع كل زواية وتجويف . وسوف يكون ذلك منظراً عجيباً ، عندما يحدث : أن نرى أولئك النسوة كما هن وعلى ما هن عليه . ولكن علينا الانتظار بعض الوقت ، فمارى كارمايكل ستظل معوقة بذلك الحرج فى وجود " الخطيئة " الذى هو إرث همجيتنا الجنسية ، وستظل أغلال الطبقية الزائفة الرديئة تحك كاحليها . ومع ذلك ، علينا تذكر أن الأغلبية العظمى من النساء لاهن محظيات ولا مومسات ، كما أنهن لا يجلسن ممسكات بكلاب صغيرة أنفها أفطس وهن يلبسن ثياباً من المخمل المترب في الظهر فى أيام الصيف . ولكن ماذا هن فاعلات بالفعل ؟ وهنا حضرنى واحد من تلك الشوارع الطويلة جوار النهر حيث تصطف البيوت إلى مالا نهاية وتكتظ بالسكان . وبعين مخيلتى رأيت سيدة عجوز جداً تقطع الشارع متكئة على ذراع امرأة فى منتصف العمر ، ابنتها ربما ، وقد ارتدت كلتاهما ملابس محترمة . يدلنا الفراء الذى يزينها والأحذية ذات الرقبة أن عملية ارتداء الملابس بعد الظهر بالنسبة لهن بمثابة الشعيرة ، وأن الملابس نفسها لابد وأنها تحفظ بحرص فى الدواليب مع الكافور ، سنة وراء سنة وخلال أشهر الصيف تقطعان الطريق فى اللحظة التى تضاء فيها الفوانيس (فالغسق هو ساعتهما المفضلة) ، أمر اعتادتاه سنة وراء سنة . السيدة الأكبر سناً فى حوالى الثمانين ، ولكن لو سألناها عما تعنى حياتها بالنسبة لها لقالت إنها تذكر عندما أضيئت الشوارع لمعركة بالاكلافا ، أو أنها سمعت المدافع تنطلق احتفالا بميلاد الملك إدوارد السابع . فإذا سألناها ، ونحن نتشوق إلى تثبيت اللحظة بتاريخ محدد أو فصل بذاته : ولكن ماذا كنت تفعلين فى الخامس من أبريل ١٨٦٨ ؟ أو الثانى من نوفمبر ١٨٧٥ ؟ لعلا وجهها تعبير مبهم

وقالت إنها لا تتذكر أى شئ ، وذلك لأن كل وجبات العشاء كانت قد طهيت ، وكل الأطباق والأكواب غسلت ؛ وتخرّج كل الأولاد من المدارس وانتشروا فى الأرض ، ولم يتبق من كل هذا شئ ، اختفى كله . وليس هناك تاريخ أو سيرة بها كلمة واحدة عن أى من كل هذا . والروايات دون قصد ، تكذب لأنه لا مناص من الكذب .

كل تلك الحيوات المطموسة تظل غير مسجلة ، قلت أوجه حديثى إلى مارى كارمايكل مرة أخرى وكأنها أمامى . ومضيت عبر شوارع لندن وأنا أفكر ، وأشعر بضغط الخَرس فى مخيلتى وتحت وطأته تتراكم الحيوات التى لا تسجل ولا يوثق لها ، حيوات من النساء اللواتى يقفن وقد عقدن أذرعتهن على صدورهن على نواصى الطرق ، والخواتم تصطف فى أصابعهن المنتفخة المكتنزة ، يتكلمن بحركات من الأيادى تشبه وقع كلمات شكسبير فى روحها ومجيئها ؛ أو من بائعات زهور الفيوليت وبائعات الكبريت والعجائز الثابتات تحت مداخل البيوت ، أو من الفتيات الرائحات الغاديات اللواتى تومض وجوههن مثل الأمواج فى الشمس وتحت السحب ، مؤذنة بقدوم الرجال والنساء ، والأضواء التى تختلج فى نوافذ المحلات . عليك اكتشاف كل هذا ، قلت لمارى كارمايكل ، وأنت تمكسين بشعلتك بقوة وصلابة فى يدك . وقبل كل شئ عليك إنارة روحك أنت بكل ما بها من أعماق ، وضحالة ، بكل مواضع كزمها وغرورها ، وأن تقولى ما الذى يعنيه لك جمالك أو انعدامه ؟ وما علاقتك بعالم القفازات والأحذية المتبدل المتحول دوماً ؟ وما علاقتك بكل الأشياء السخيفة التى تتأرجح صعوداً وهبوطاً وسط روائح العطر الواهية ، الفاترة التى تخرج من قوارير الصيدليات ومحلات بيع أدوات الزينة ، فتنزل إلى حيث أقمشة الدساتين وقد رصت فوق الأرضيات المصنوعة من الرخام المزيف ؟ كل هذا لأنى - الآن - فى مخيلتى كنت قد دخلت إلى محل يغطى أرضيته بلاط أبيض وأسود ، ومزين على نحو مدهش وجميل بالشرائط الملونة ، قد تلقى مارى كارمايكل عليه نظرة وهى مارة ، فكرت ، لأنه منظر يصلح تماماً للوصف مثل أى قمة جليدية أو وديان ضيقة وصخرية فى جبال الإنديز . هناك أيضاً الفتاة وراء " البنك " الذى يدفع عليه النقود وتعد والتى أفضل ألف مرة أن أعرف تاريخها الخاص الحقيقى بدلاً من قراءة سيرة نابليون الخمسين بعد المائة أو الدراسة السبعين عن كيتس واستخداماته " لتقديمات ميلتون وتأخيراته " التى يكتبها الآن البروفيسور Z وأمثاله . ثم رحت أتحسس طريقى بكل حرص وعلى أطراف أصابعى (جبانة أنا جداً وجد خائفة من وقع السوط الذى كاد يوماً أن ينزل على كتفى) وأنا

أهمهم : إن عليها أيضاً أن تتعلم كيف تضحك ، بلا مرارة على مظاهر الغرور والزيف عند (أو لنقل على " خصائص " ، فهى كلمة أقل أذى للشعور) الجنس الآخر . لأنه توجد هناك رقعة فى حجم الشلن فى خلف الرأس لا يراها المرء أبداً بنفسه . وأنها لمن الخدمات الطيبة التى يمكن لجنس أن يؤديها لآخر - أن يصف له تلك الرقعة القابعة فى مؤخرة الرأس . ولنتفكر كم استفادت النساء من تعليقات چوفنال ؛ ومن نقد سترندبرج . ولنفكر بأى قدر من الإنسانية والألمعية ، استطاع الرجال من قديم الزمن إبراز تلك الرقعة المظلمة فى مؤخرة رؤوس النساء ! ولو أن مارى كانت فى منتهى الشجاعة والأمانة لذهبت خلف الجنس الآخر وقالت لنا عن الذى وجدته هناك . فلن نرى صورة كاملة تامة عن الرجل حتى تصف لنا امرأة تلك الرقعة التى فى حجم الشلن . إن السيد وودهاوس * والسيد كازوبان ** هم رقع من هذا الحجم ولهم تلك الطبيعة . ولكنا بالطبع لا ندعو مارى أن تسخر وتهزأ عن قصد ، فما من أحد فى قواه العقلية ينصحها بمثل هذا وقد أثبت لنا الأدب لا جدوى كل ما كتب بهذه الروح . كونى صادقة ، أقول لها ، والنتيجة ستكون مذهلة فى إثارتها للاهتمام ؛ وسوف تغذى وتثرى الكوميديا وسوف تكتشف حقائق جديدة .

ولكن وقت العودة إلى الصفحة قد أزف . من الأفضل رؤية ما كتبت مارى كارمايكل بالفعل بدلاً من التنظير حول ما قد تكتب أو ما يجب عليها أن تكتب . وهكذا عدت أقرأ مرة أخرى . وتذكرت أنى كنت أحمل لها شيئا من الضغينة . فهى قد كسرت وحطمت جملة چين أوستن البديعة ، وبذا لم تعطنى الفرصة لتهنئة نفسى على ذوقى المعصوم وأذنى المتأنقة التى يصعب إرضاؤها . كان بلا فائدة أن أقول ، " نعم ، هذا لطيف ، نعم ، ولكن چين أوستن كتبت أفضل منك » وعندما اضطررت لهذا الاعتراف لم يعد هناك وجه شبه بينهما . وبعدها ذهبت إلى أبعد من كسر الجملة وكسر تسلسل الأحداث - النظام المتوقع . ربما فعلت ذلك دون أن تعى ، فأعطت الأشياء مكانها الطبيعى كما قد تفعل المرأة إذا كتبت بوصفها امرأة . ولكن النتيجة كانت محيرة لسبب ما ؛ فلم يكن فى وسع المرء أن يرى موجة تتراكم على نفسها هنا ، أو أزمة تتجمع هناك . ولذا لم يكن فى وسعى أن أهنئ نفسى على عمق مشاعرى أو على معرفتى الواسعة بالقلب الإنسانى . ففى اللحظات التى كنت فيها على وشك الشعور بالمشاعر المعتادة فى الأماكن المعتادة عن الحب ، عن

* فى رواية الكرامة والكبرياء لچين أوستن .

** فى رواية ميدل مارتش لچورج اليوت .

الموت ، راوغتنى تلك المخلوقة المغيظة فكلما ظننت أننى أقترب من النقطة الهامة أجدها تبتعد عنى . وبذا ، أصبح من المستحيل أن أبحث عن المعايير التى أعتدها والتى تصاغ غالبا فى ألفاظ جزلة طنانة على شاكلة : "المشاعر البسيطة الأصيلة" و "المكونات التى تشترك فيها البشرية" ، و "أعماق القلب البشرى" ، وكل تلك الجمل التى نستند إليها حين نعتقد أننا ، مهما بلغنا من مهارة سطحية ، فإننا فى منتهى الجدية والعمق والإنسانية تحت هذا السطح . لقد أشعرتنى ، على العكس ، أننى خاملة الذهن ، تقليدية - وكان هذا خاطرا أقل أغواء بالطبع من الجدية والإنسانية والعمق الذى كنت أود أن أستشعره فى نفسى .

لكنى مضيت فى القراءة ، ولاحظت حقائق أخرى . لم تكن مارى عبقرية - وكان ذلك واضحاً . لم تكن تحب الطبيعة ، ولم يكن خيالها مشتعلا ، ولا كانت بها لمحة من الشاعرية المتوحشة ولا قبس من الألمعية ، ولا كان لها مالسابقاتها من حكمة متأملة متفحصة ، كالتى كانت لليدى ونتشيلسى أو شارلوت برونتى أو إميلى برونتى وجين أوستن وجورج إليوت ؛ ولم يكن في وسعها الكتابة برصانة ولا بنغمات دوروثى أوزبورن - الواقع هو أنها لم تكن سوى فتاة ماهرة . لن تمر على كتبها عشر سنين حتى يتخلص منها الناشر ومع هذا فقد كانت لها ميزات افتقدتها نساء ذوات مواهب أعظم بكثير ، من قبل خمسين سنة فقط . فالرجال لم يكونوا بالنسبة لها "فريقاً مضاداً" ولم تكن بها حاجة إلى الصعود إلى السطح وتحطيم سلامها الداخلى وهى تتشوق إلى الترحال والتجربة ومعرفة العالم والشخصيات المتنوعة التى حرمت من معرفتها . لم يكن بها خوف أو كراهية ، تقريباً ، لأن أثر الخوف والكراهية لا يبين إلا فى بعض المغالاة فى الجد والسرور المتعلق بالحرية والميل نحو السخرية والتعليقات الكاوية بدلاً عن الرومانسية فى التعامل مع الجنس الآخر . ولذا يبدو أنها ، وبوصفها روائية كانت تتمتع بتميز طبيعى من نوع رفيع ومتقدم . كانت لها حساسية عريضة وحرية وتفيض حماساً ، تتأثر وتنفعل لأقل لمسة ؛ تتغذى مثل النبات الوليد فى الهواء الطلق على كل صورة وكل صوت يمر عليه . وكان مدى حساسيتها كذلك يتضمن أشياء غير معروفة تقريباً وغير موثقة ، فى رهافة لا متناهية وعلى نحو يدعو للدهشة . تخرج أشياء مدفونة وتعرضها للضوء وتجعلنا نتساءل عما كان يستدعى دفن تلك الأشياء . صحيح أنها كانت تبدو مرتبكة ، وتفتقر إلى سمات الثقة فى النفس التى تنتج عن الانتماء إلى ميراث عميق ، والتى تجعل من جرة قلم ثاكرى أو لامب شيئاً ممتعاً للأذن - كانت - وبدأت أفكر - قد وعت وحققت مقتضيات أول الدروس العظيمة ؛ كانت تكتب كامرأة ، حتى إن صفحاتها كانت مليئة بتلك الخاصية الجنسية التى لا تحضر إلا حينما يكون الجنس غير واع بذاته . وكان كل هذا خير ، ولكن ما كان يجدى أى قدر من

تلك الحساسية أو من رهافة الإدراك إلا إذا استطاعت أن تبنى من الشخص العابر ، صرحاً يدوم . قلت قبل هذا إنى انتظرت حتى تواجه نفسها فى " موقف " وكنت أعنى بذلك : حتى تبرهن أن فى استطاعتها أن تستقدم وتستجمع ما يثبت أنها لا تتعامل مع الغثاء فقط ، ولكن فى مقدورها الغوص إلى الأعماق . وقد تقول لنفسها فى لحظة ما ، إن الوقت قد حان الذى أستطيع فيه ، أن أظهر وأبين معنى كل هذا . وستبدأ – هى لحظة لا تخطئها عين ، مفعمة بالحياة ! – تستدعى وتستقدم فينمو ويبرز فى الذاكرة ما هو نصف منسى ، أشياء تافهة ربما أسقطت دون اكتراث فى فصول من الكتاب . وقد تجعل وجود تلك الأشياء ملموساً حين تجلس إحداهن تحيك أو يدخن أحدهم "البايب" فى أوضاع أقرب ما تكون إلى الطبيعة . ويشعر المرء ، وهى مستمرة فى الكتابة ، وكأنه قد ذهب إلى قمة العالم وأنه ينظر من علٍ بعظمة إلى السفح وما يحويه .

على كل ، كانت تحاول . وكنت وأنا أراقبها أرى ما تمنيت ألا ترى وهى تستعد لخوض الامتحان ، كنت أرى الأساقفة ورؤساء الجامعات ، والدكاترة والأساتذة والآباء .

الأساتذة والطلاب فقط مسموح لهم بالسير على النجيل ! غير مسموح للسيدات بالدخول دون خطاب توصية ! على الروائيات الشابات الطموحات الرشيقات المضى فى هذا الطريق دون غيره ! وهكذا استمروا يصرخون فيها مثل جمهور سباق الخيل وقد تزاحم حول أسوار حلبة السباق . وكان نجاحها متوقفاً على قدرتها على عدم الالتفات يميناً أو يساراً . لو أنك توقفت لتشتميهم هلكت ، قلت لها ؛ وهلكت أيضاً لو ضحكت . ترددى لحظة أو تلجلجى : قضى عليك . لا تفكرى سوى فى القفزة التالية ، توسلت إليها ؛ وبالفعل قفزت فوق الحاجز كالعصفور . ولكن بدا حاجز آخر وحاجز آخر بعده . كنت متشككة فى قدرتها على الاستمرار ، لأن التصفيق كان يشغث وينسل الأعصاب . لكنها فعلت ما فى وسعها . ومع الأخذ فى الحسبان أن مارى كارمايكل لم تكن امرأة عبقرية وإنما فتاة مجهولة تكتب أولى رواياتها فى غرفة صغيرة للنوم والمعيشة وليست لها كفايتها من تلك الأشياء المرغوبة : الوقت والمال والفراغ ، تراءى لى أنها أبلت بلاءً معقولاً ولنعطها مئة عام أخرى ، قلت وأنا أنهى الفصل الأخير – وقد بانت أكتاف الناس العارية وأنوفهم على خلفية السماء التى برقت بالنجوم ، لأن أحدهم أزاح الستائر فى غرفة الصالون – إعطها غرفة تخصها وحدها وخمسمائة جنيه فى السنة ، ودعوها تفصح عما يدور فى خلدها وتترك نصف ما تضمه كتابتُها الآن ، وسوف تكتب كتاباً أفضل فى يوم من تلك الأيام ، سوف تكون شاعرة ، قلت وأنا أضع " مغامرة الحياة " بقلم مارى كارمايكل فى طرف الرف ، ستكون شاعرة فى غضون مائة عام .

- ٦ -

فى اليوم التالى ، كان ضوء صباح أكتوبر يسقط على السور الحديدى ، خارج النوافذ العارية من الستائر ، وطنين حركة المرور الصاعدة من الشارع . هاهى لندن تستعيد تحفزها ؛ المصانع تتحرك والماكينات تبدأ عملها . كان مغرياً بعد كل تلك القراءة النظر خارج النافذة ورؤية ما كانت تفعله لندن ذلك الصباح ، صباح ٢٦ من أكتوبر عام ١٩٢٨ . وما الذى كانت تفعله لندن ؟ ما من أحد كان يقرأ " أنطونيو وكليوباتره " لندن كانت غير مكترثة على الإطلاق بمسرحيات شكسبير ، أو هكذا بدت . ما كان أحد يهتم قيد أنمله - وأنا لا ألومهم - بمستقبل القصص الروائى ، أو بموت الشعر أو بامرأة عادية تطور وتنجز أسلوباً من النثر يعبر تماماً عن ذهنها ووجدانها . ولو أن آراء مثل تلك كتبها أحدهم بالطباشير على الرصيف فى الشارع ما توقف أحد لقراءتها ولمحاها وقع تلك الأقدام المسرعة غير المبالية ، فى نصف ساعة . هاك ساع يسرع ، وهذه إمرأة تجر كلباً . إن ما يجعل شوارع لندن مبهرة هو أنه لا يوجد بها اثنين متشابهين من البشر . كل يبدو منكباً على أمر يخصه. هناك رجال الأعمال بحقائبهم الصغيرة ؛ والمتجولون بلا هدف يقرقعون بعصيانهم على الأسوار الحديدية للحى ؛ هناك الشخصيات المرحة الوبودة التى تعامل الشارع كأنه غرفة فى نادى ، يتصايحون ويقدمون المعلومات دون أن يسألوا . وأيضاً هناك الجنازات التى يرفع لها الرجال قبعاتهم وقد تذكروا فجأة أن أجسادهم فانية . ثم ظهر سيد مهذب أنيق ذو هيبة هابطاً ببطء سلما فنزل ووقف ليتفادى الاصطدام بسيدة منهمكة كانت بشكل أو آخر قد حصلت على معطف رائع من الفراء وباقة من بنفسج بارما . كانوا كلهم يبدون متفرقين فرادى ، منهمكين فى أنفسهم ، لكل أمر يشغله ، لا يخص غيره .

فى تلك اللحظة ، وهو أمر كثيراً ما يحدث فى لندن ، هدأت حركة المرور تماماً حتى كادت أن تتوقف . لم يمر أحد فى الشارع ولم تقطعه العربات . وتملصت ورقة شجر وحيدة من الشجرة الجرداء فى نهاية الشارع ، وفى اللحظة التى هجع فيها المرور ، سقطت ، كأنها إشارة ما ، إشارة وقعت لتؤكد أن القوة الكامنة فى الأشياء ، غابت عن كل هذا. بدت وكأنها تشير إلى النهر ، الذى كان ينساب ، دون أن يراه أحد من خلف ناصية الشارع ، وأخذ الناس معه فى حومته ، مثلما فعل الجدول فى أوكسبردج عندما أخذ الطلاب معه فى مركبه وأخذ كذلك أوراق الشجر الذابلة .الآن كان النهر يجئ بفتاة من

أحد جانبى الشارع بالورب . كانت ترتدى حذاء ذا رقبة من الجلد اللامع ، وبعدها جاء شاب فى بالطو بلون الكستناء ؛ وكان النهر يحمل تاكسياً كذلك ، جاء بالثلاثة سوياً وحتى نقطة تقع تحت نافذتى مباشرة ، حيث توقف التاكسى وتوقفت كذلك الفتاة كما توقف الشاب ذو المعطف . ثم انزلق التاكسى فى طريقه وكأن التيار حمله معه إلى مكان آخر .

كان منظراً عادياً ، ولكن وجه الغرابة فيه كان النظام الإيقاعى الذى سبغته عليه مخيلتى ؛ منظر الفتاة والشاب وهما يدخلان التاكسى وهو منظر عادى للغاية لكنه على الرغم من ذلك كان من القوة بحيث وصلنى شئ من رضاهما البادى وهما يقومان بتلك الحركة . أن منظر اثنين من البشر يسيران فى الطريق ثم يلتقيان عند الناصية يبدو وكأنه يخفف عن الذهن شيئا من توتره : فكرت فى ذلك كله وأنا أرقب التاكسى ينحرف ويختفى . ربما كان التفكير ، فى خلال اليومين الماضيين ، فى موضوع الاختلاف بين الجنسين يعد جهداً فهو يتدخل بين وحدة الذهن والوجدان . والآن ، توقف الجهد وعادت وحدة الذهن والوجدان وقد رأيت شخصين يلتقيان ويدخلان «تاكسى» سوياً . العقل يأله من غموض عجيب ، قلت متأملة وأنا أدخل رأسى من النافذة ، إننا لا نعلم عنه شيئاً مطلقاً على الرغم من أننا نعتمد عليه تماماً . لماذا أشعر بأن هناك تضادات وانفصامات فى العقل * ؟ مثلما توجد أسباب واضحة للضغوط والتوترات التى قد يعانى منها الجسد ؟ ما الذى يعنيه المرء حين يقول "وحدة العقل ؟ " تمعنت وقلبت النظر ، فمن الواضح أن العقل له قدرة هائلة على التركيز ، على أى نقطة ، وفى أى لحظة حتى إنه يبدو بلا كيان واجد ثابت . ففى استطاعته أن يعزل نفسه عن الناس فى الشارع ، مثلاً ؛ وأن يفكر فى نفسه على أنه منفصل عنهم ينظر إليهم من نافذة عالية . أو قد يفكر مع الآخرين على نحو تلقائى مثلما يحدث عندما يكون جمع من الناس فى انتظار سماع أخبار تلقى عليهم . ويستطيع التفكير عبر الزمن من خلال آبائه وأمهاته كما حدث وقلت إن المرأة حين تكتب تفكر عبر أمهاتها . ومن جهة أخرى لو إن الإنسان امرأة فكثيراً ما تندهش للانفصام

---

* حتى تلك الفقرة فضلت ترجمة كلمة mind التى تتواتر فى النص على أنها تضامن الذهن والوجدان أما وقد بدأت الكاتبة تسبغ عليها خصائص الوعى والتفكير عدت إلى استخدام لفظة عقل مرغمة .
وظنى أن وجدان التى ليس لها مرادف فى الإنجليزية كانت تفى وحدها المعنى طيلة النص حتى فى الفقرة موضع التعليق ولكن لزمت الإشارة لأنها تمثل إشكالية .

الذى يفاجئها فى وعيها وهى سائرة فى " واتيهول "(*) مثلاً ، حيث يتحول شعورها بأنها سليلة طبيعية لهذه الحضارة إلى شعور بعكس ذلك تماماً ؛ وأنها دخيلة عليها وغريبة عنها وخارجها ، فاقدة لها . واضح أن العقل يحول ويغير من بؤرة تركيزه باستمرار ، ويضع العالم فى منظور مختلف من لحظة لأخرى . ولكن بعض من تلك الحالات الذهنية (**) تبلو ، حتى حين يتبناها العقل تلقائياً ، أقل راحة وهناء من حالات أخرى . وحتى يجبر المرء نفسه على الاستمرار فيها يضطر إلى حجز شئ على مستوى اللاشعور ، وبالتدريج ، يصبح هذا الكبت جهداً . ولكن قد توجد حالة ذهنية يستطيع المرء الاستمرار فيها دون بذل الجهد لأنه لا يوجد ما يستدعى الكبت ، وتلك هى واحدة منها . فكرت وأنا أرجع عن النافذة ، فلا شك أن ذهنى وبعد أن كان منفصماً عادت له وحدته الطبيعية ،عندما رأيت الفتاة والشاب يدخلان التاكسى سوياً . أما السبب الظاهر فهو أنه من الطبيعى أن يتعاون الجنسان . فالمرء له غريزة عميقة ، وإن كانت غير عقلانية ، وتنحاز إلى النظرية التى تقول إن وحدة الرجل والمرأة هى أساس أعظم الرضا وأكمل أوجه السعادة . ولكن منظر الشاب والفتاة وهما يدخلان التاكسى سوياً وكم الرضا الذى إنتابنى لهذا المنظر جعلنى أيضاً أتساءل عما إذا ما كان هناك جنسان أيضاً فى الدماغ (الذهن ، العقل) ؟ وعما إذا كانا يتطلبان وحدة ما أيضاً حتى يحصلا على أكبر قدر من الرضا والسعادة ؟ ورحت أخط دون اتقان رسماً للروح وجعلت فى كل منا قوتين : واحدة أنثى والأخرى ذكر ، وفى مخ (***) الرجل يسود الرجل على المرأة ، وفى مخ المرأة تسود المرأة . إن الحالة الطبيعية الهانئة لأى منهما عندما يحيا الاثنان معاً فى وئام ؛ يتعاونان روحياً . فلو كان المرء رجلاً ، فلابد أن يظل الجزء الأنثوى فى مخه نو تأثير ، والعكس صحيح . وربما كان هذا ما عناه كوليردج عندما قال إن العقول العظيمة مزدوجة الجنس . عظيمة عندما يحدث ذلك الانصهار والالتحام ، عندما يلقح العقل تلقيحاً كاملاً ويستخدم جميع ملكاته . ربما كان الذهن تام الذكورة لا يستطيع الخلق والإبداع ، وكذلك إذا كان تام الأنوثة ، تأملت . ولكن ربما يصح أن نختبر ما يعنيه تعبير رجولى – نسائى أو نسائى – رجولى ، بأن نطلع على كتاب أو اثنين .

---

* مقر البرلمان الإنجليزى .

** هنا مثلاً ترجمة State of mind إلى حالات عقلية يحيلنا فى العربية إلى الأمراض .

– المعنى الكبير يعطينا مثلاً تلك الترجمة لتعبير a happy state of mind حالة غبطة نفسانية – حالة سرور النفس .

*** هنا لا توجد مشكلة . مخ ترجمة حرفية لـ brain .

لم يعن كوليردج دون شك ، عندما قال إن العقول العظيمة مزدوجة الجنس ، أن لمثل ذلك العقل انحياز خاص للنساء ؛ ذهن يتبنى قضيتهن أو يكرس نفسه لتفسير أحوالهن . بل ربما كان العقل مزدوج الجنس – بهذا المعنى – أقل قدرة على فعل ذلك التمييز من الآخر . ولكنه ربما قصد أن العقل مزدوج الجنس عقل كثير المسام ، متجاوب ؛ إنه عقل ينقل المشاعر دون عوائق ، وأنه بطبيعته مبدع خلاق ، متوهج ، متوقد وغير منقسم . الحق إن المرء سيعود لشكسبير مثالاً على هذا النوع من العقل ، الرجولى – النسائى مع أنه من المستحيل التكهن بما كان يعتقده شكسبير فى النساء . ولو كان صحيحاً أن واحداً من أمارات الذهن كامل التطور أنه لا يفكر فى الجنس على نحو خاص أو على حدة ، فكم هو صعب الحصول على هذا الذهن الآن . وهنا وصلت إلى الكتب التى كتبها أناس مازلوا على قيد الحياة وتوقفت وتسائلت : ما إذا كانت تلك الحقيقة تقع فى مكان القلب من شئ طالما حيرنى . لا يوجد زمن مثل زماننا فى وعيه الحاد بالجنس ، وكل تلك الكتب التى لا حصر لها بأقلام رجال ونساء فى مكتبة المتحف البريطانى دليل على ذلك . كانت حركة النساء الطليعية من أجل الحصول على حق التصويت هى السبب ولا شك . لابد أنها استنفرت فى الرجال رغبة هائلة فى إثبات ذواتهم . لابد أن تلك الحركة جعلتهم يؤكدون على خصائص جنسهم وما يميزه ، وهو ما كانوا ليتكبدوا مشقة التفكير فيه لو أنهم لم يشعروا بالتهديد وبالتحدى . فعندما يواجه المرء تحدياً ما ، حتى لو كان ذلك من بضع نساء يلبسن القبعات السوداء فعلى المرء أن يقتص لنفسه . فإذا لم يكن المرء قد مر بتجربة أن يتحداه أحد من قبل ، فإن التصدى يكون أعنف . لابد أن هذا هو تفسير بعض الخصائص . فكرت وأنا ألتقط رواية جديدة للسيد «أ» وهو فى ريعان شبابه وقد حاز على إعجاب نقاد الصحف ، وفتحتها . كان بالفعل مبهجًا أن أقرأ لرجل مرة أخرى . وبدا كلامه واضحاً ومباشراً وصريحاً . كان ذلك مؤشراً على حرية فى الفكر وثقة فى النفس وانطلاقاً فى الشخصية . وفى حضرة ذلك العقل الحر ، المثقف تثقيفاً عالياً ، الثرى ، عقل لم يحبطه أحد ، أو يمنعه أحد عن مسعاه ، كانت له كل الحرية منذ مولده أن يمتد وينمو ويسعى فى إى إتجاه أراد . ليس على المرء سوى أن يعجب به . ولكن بعد قراءة فصل أو اثنين بدا وكأن ظلاً ما يقبع على وجه الصفحة كان قضيباً داكناً مستقيماً على شكل كلمة "أنا" (I) وبدأت فى محاولة تفاديه : حتى يتنسى لى رؤية المنظر من ورائه والتعرف على ما إذا كانت تلك شجرة بالفعل أو امرأة تسير ، لم أكن متأكدة تماماً . ظلت ظلال " أنا " تلك تحجب عنى الرؤية . وبدأت أتعب منهـا . ولا يعنى ذلك أنهـا لم تكن " أنا " فى منتـهى

الاحترام ، أمينة ومنطقية ، وصلبة كجوزة أو لوزة ، صقلت ولمعت على مدى قرون بالتعليم والغذاء الجيد . أنى لأحترم تلك " الأنا " من كل قلبى ولكن - وهنا قلبت صفحة أو اثنتين ، وأنا أبحث عن شئ أو آخر - وكان أسوأ ما وجدت أنه لاشيء آخر فى ظل تلك " الأنا " له قوام بل تبدو كل الأشياء وكأنها غشاء الضباب الرقيق . هل هذه شجرة ؟ لا بل هى امرأة ولكنها بلا عظمة واحدة فى جسدها . فكرت وأنا أرقب " فيوبى " وكان ذلك اسمها ، وهى تسير ، بعرض الشاطئ ، ثم نهض " آلان . وفى الحال ، محى ظل " آلان " كل أثر فيوبى وذلك لأن " آلان " كانت له آراء أما فيوبى فغاصت فى الحال فى طوفان آرائه . ثم إن آلان به ولع ووجد وشوق ، به عواطف متأججة . وهنا قلبت صفحة وراء صفحة بسرعة كبيرة وأنا أشعر أن الأزمة فى الطريق . وقد كان ، وحدث على الشاطئ تحت الشمس . حدث فى منتهى الوضوح والصراحة . حدث بعنفوان ؛ لم يكن من الممكن أن أتصور شيئاً أقل حياء ، أو فجوراً . ولكن..... لقد قلت و «لكن» تلك أكثر من اللازم . لا يمكن أن يستمر المرء فى قول " «ولكن» على هذا النحو ! على المرأ أن ينهى الجملة على نحو ما ، رحت أؤنب نفسى ؛ هل أنهيها ؟ ولكن - مللت ! " لم مللت ؟ من ناحية كان ذلك بسبب هيمنة كلمة " أنا " والجفاف والجدب الذى تسقطه على كل ما يقع فى حيز ظلها كأنها شجرة زان عملاقة لا ينمو تحتها شئ . ومن ناحية أخرى ولسبب أقل بدهية بدا وكأن هناك عائق ما ، حاجز يحبس ويسد ينبوع الإبداع الفوار ويحصره فى حدود ضعيفة فى عقل السيد . وتذكرت حفل الغداء فى أوكسيردج ورماد السجائر وقط بلا ذنب وتنيسون وكرستينا روزيتى جميعاً وجملة ، فبدا لى أن العائق ربما كان هناك . فهو لا يهمهم بينه وبين نفسه " سقطت دمعة " ، وعندما تخطو فيوبى علي الشاطئ لا تردد : " قلبى مثل عصفور يفرد ، عشه فى قلب برعم سقاه الماء " ، وعندما يقترب آلان ماذا عساه يفعل ؟ وبما أنه فى وضوح النهار وفى منطقية الشمس ، هناك شئ واحد يستطيع عمله . وهو يفعله ، حتى لا نظلمه ، قلت وأنا أقلب الصفحة ، مراراً وتكراراً . وهذا (قلت مضيفة ، وأنا أعى الطبيعة المروعة لمثل هذا الاعتراف) يبدو لسبب ما معلماً . إن الفحش " وقلة الحياء " فى مسرحيات شكسبير يقتلع ألف شئ آخر من جذوره من عقل المرء ، وهو أبعد ما يكون عن الملل . ولكن شكسبير يفعلها من أجل المتعة ؛ أما السيد (أ) ، مثلما تقول المربيات ، فيفعلها عن عمد . إنه يفعلها احتجاجاً . إنه يحتج على المساواة بالجنس الآخر من خلال تأكيد أفضليته هو . ولذا فهو معوق ومتحرج على نحو ما كان يمكن أن يكون شكسبير عليه لو أنه عرف الآنسة كلو أو الآنسة ديفيز.* ومما لا شك فيه أن الأدب الإليزابيثى كان ليختلف

* من رائدات حركة السافرجيت المطالبة بحق التصويت للنساء .

كل الاختلاف لو أن الحركة النسائية كانت قد بدأت فى القرن السادس عشر، لا فى القرن التاسع عشر . إن حصيلة ذلك ، لو أن نظرية شقى العقل تلك كانت صحيحة ، هو أن الفحولة أصبحت واعية بذاتها – أى أن الرجال الآن يكتبون بالجزء الرجولى فقط من أذهانهم ومن الخطأ أن تقرأ لهم النساء ، لأنهن سوف يبحثن تلقائياً ، عن شئ لن يجدنه . إن ما يفتقده المرء أكثر من غيره فى تلك الحالات هو القدرة على الإيحاء ، فكرت وأنا أسحب السيد "ب" من يده وأقرأ بحرص شديد وطاعة تامة تعليقاته على فن الشعر . كانت تعليقاته نافذة ، ماهرة ومفعمة بالمعلومات ، ولكن المشكلة كانت فى أن مشاعره لم تعد تتواصل ؛ بدا ذهنه مقسماً إلى غرف مختلفة ؛ ولم يكن يسمح لصوت أن يعبر من واحدة إلى الأخرى . وهكذا عندما نأخذ جملة من السيد "ب" ونموضعها فى أذهاننا فإنها تقع دفعة واحدة إلى الأرض – ميتة ؛ ولكن عندما يأخذ المرء جملة كتبها كوليردج إلى ذهنه ، فهى تنفجر وتولد أنواعاً لا تحصى من الأفكار الأخرى ، وهذا هو نوع الكتابة الوحيد الذى يمكن لنا أن نقول عنه إن له سر الحياة الأبدية .

ولكن أياً كانت الأسباب ، يظل الأمر داعياً للرثاء . فهو يعنى أننى قد وصلت إلى صفوف على الرف من كتب مستر جولزوروث ومستر كيلبنج وآن (*) وأن بعضاً من أعظم كتابنا ممن هم على قيد الحياة يقع إنتاجهم على آذان صماء .

ومهما فعلت المرأة فإنها لن تجد فيهم ينبوع الحياة الأبدية ذلك الذى يؤكد لها النقاد أنه متوفر فى تلك الكتب . فهى كتب لا تحتفى بالفضائل الذكورية ، وتؤكد القيم الذكورية وتصف عالم الرجال ، فقط ولكنها كتب تتخمها مشاعر غير مفهومة للنساء . هاهى قادمة ، تستجمع نفسها وهى على وشك الانفجار فى الدماغ ، هذا ما يقوله المرء قبل النهاية بزمن . تلك الصورة والإطار سوف يقعان على دماغ جولين العجوز وسوف يموت من الصدمة ؛ سوف يلقى فوق نعش الموظف العجوز كلمتان أو ثلاثة فى الجنازة ؛ وسوف تنفجر كل البجعات على نهر التيمس فى الغناء فى وقت واحد** ولكن المرء سوف يسرع للاختباء قبل حدوث أى من ذلك فى أشجار عنب الثعلب البرية ، لأن المشاعر التى تبدو للرجل عميقة جداً ، رهيفة جداً ، رمزية جداً لا تحرك فى النساء سوى الحيرة والتساؤل . وهكذا عندما يدير ضباط المستر كيلبنج ظهورهم ، يبذر الرجال الحب ويبقون وحدهم مع العمل ، والعلم – إن المرء ليخجل من تكرار مثل ذلك*** وكأنه أمسك متلبساً بالتصنت على هرج عربدة

---

* روبارد كيبلنج وجون جولز وروث وآن برونتى .

** إحالة إلى قصيدة سبنسر الشهيرة .

*** فى الأصل الخجل من تكرار الحروف التى يدرجها كيبلنج وكأنها فى بداية الجملة capital

ذكورية . الواقع هو أن لا السيد جولز وروث ولا السيد كيلبنج بهم قيد شرارة من (الصفات) النسائية ؛ ولذا فإن كل صفاتهم تبدو بالنسبة لامرأة ، لو حق لنا التعميم ، فجة وغير ناضجة تنقصها القدرة على الإيحاء . وعندها يفتقر كتاب ما إلى القدرة على الايحاء ، مهما كانت القوة التى يطرق بها على الذهن والوجدان فإنه لا يستطيع الولوج إلى داخله .

وفى هذا المزاج المضطرب الذى يصاحب التقاط الكتب وإعادتها ثانية دون الإطلاع عليها ، بدأت أتصور زمنًا قادمًا نقيًا وصافياً تسوده الفحولة التى تؤكد الذات ، مثل خطابات الأساتذة (خذ مثلاً خطابات السير والتر رالى) التى بدت إرهاصاً بذلك المزاج ، والتى جاء بها إلى حيز الوجود حكام إيطاليا . إن المرء لا يسعه إلا أن ينبهر فى روما بحس الذكورة المطلق السائد هناك ؛ ولكن مهما كانت قيمة الذكورة المطلقة بالنسبة للدولة ، يظل فى استطاعتنا التساؤل عن تأثيرها على فن الشعر . على كل حال ، ووفقاً للصحف يبدو أن هناك قلقاً ما على القصص الروائى فى إيطاليا . ولقد عقد لفيف من الأكاديميين اجتماعاً كان محور النقاش فيه يدور حول كيفية تطوير الرواية الإيطالية وتنميتها . كما اجتمع رجال معروفين بأنسابهم وعائلاتهم فى مجال المال والتجارة ، والصناعة ، والتعاونيات الفاشية وناقشوا الأمر ، وبعثوا بتلغراف إلى الدوتش يعبرون به عن أملهم «أن تنتج الحقبة الفاشية فى القريب العاجل شاعراً يليق بها » . ولنا أن نشارك جميعاً فى هذا الأمل الورع ، ولكن من المشكوك فيه أن يخرج الشعر من الحضانات . فالشعر يتطلب أباً أما القصيدة الفاشية ، فلابد أن تكون مسخا مصغيراً بشعاً مثل الذى يعرض فى البرطمانات الزجاجية فى متاحف القرى . مثل تلك الكائنات الممسوخة لا تعيش طويلاً ، هكذا يقال ، ولم ير أحد مثل تلك الأعجوبة تجز الحشائش فى حقل ما . إن رأسين على جسد واحد لا تساعدان على إطالة الحياة . ومع ذلك فإن الذنب فى كل هذا ، لو أن المرء حريص على إلقاء اللوم ، لا يقع على جنس دون آخر ؛ فكل المصلحين وكل سحرة البيان مسئولون : الليدى بسبورد عندما كذبت على لورد جرادنفل ؛ الآنسه ديفيز عندما صرحت بحقيقة مستر جريج ، كل من ساهموا فى التوعية بالجنس مسئولون ، وهم الذين يدفعوننى ، عندما أود توظيف وعيى فى قراءة كتاب ، أن أبحث فيه عن ذلك العصر السعيد ، قبل أن تولد مس ديفيز ومس كلاو ، عندما كان الكاتب يستخدم جزئى ذهنه بالتساوى . على المرء

أن يعود إلى شكسبير إذن ، لأن شكسبير كان مزدوج الجنس ؛ كما كان كيتس وستيرن وكاوبر ولامب وكوليردج ، شيلى ربما وحده كان يفتقر إلى الجنس . أما ميلتون وبن جونسون فكانت الذكورة أكثر مما يجب ، وكذلك وردزورث وتولستوى فى وقتنا . بروست وحده كان مزدوج الجنس عن تمام وإن كانت الأنثى به تطغى أكثر من اللازم . ولكن ذلك عيب من الندرة بحيث لا يصح الشكوى منه ، بما أن غياب الأنوثة يترتب عليه هيمنة القدرات العقلانية وتصلب المدارك الأخرى والعقم . ولكنى ، واسيت نفسى بأن تلك ما هى إلا فترة وستمر ؛ وإن الكثير مما قلت بالتالى وفاء لوعدى بأن أشرككم فى أفكارى ، وأنا أكشف عنها ، سيبدو أنه عفى عليه الزمن ؛ وأن الكثير مما يشتعل أمام عينى سوف يبدو لكم مريباً لو كنتم لم تبلغوا سن النضج بعد .

ومع هذا وبالرغم منه ، فإن الجملة التى تحضرنى هنا أول ذى بدء ، قلت وأنا أقطع الغرفة لأصل إلى طاولة الكتابة وألتقط الصفحة المعنونة " النساء وكتابة القصص الروائى » ، هى أنه شئ قاتل أن يكتب أياً من كان وهو يفكر فى جنسه . قاتلٌ أن يكون المرء رجلاً أو امرأة ، نقياً بسيطاً ؛ على المرء أن يكون امرأة - رجولية أو رجلاً - نسائياً . قاتل أن تؤكد امرأة كاتبة ولو بأقل تأكيد على أى مظلمة ؛ وأن تدافع حتى لو معها كل الحق عن أى قضية ، وأن تتحدث بأى شكل وهى واعية بأنها امرأة .

إن لفظة "قاتل" هنا ليست محسنة بديعية ؛ فأى شئ يكتب بهذا الانحياز الواعى مصيره الموت . أنه يكف عن اللقاح حتى وإن بدا لماحاً ومؤثراً ومتمكنا ليوم أو اثنين . عند نزول الليل لابد أن ينكمش ويسقط ، ولا يمكن أن ينمو فى أذهان الآخرين . لابد أن يتم نوع من التعاون داخل الذهن والوجدان بين المرأة والرجل قبل أن يتم وينجز فن الخلق ، لابد أن تتم زيجة ما بين الأضداد - على الذهن أن ينفتح تماماً حتى يصلنا الإحساس بأن الكاتب يبلغنا تجربته بكامل تمامها . لابد أن تتوفر الحرية ولابد أن يتوفر السلام . فلا تصرصر عجلة ، ولا يتلألأ ضوء ، وعلى الستائر أن تغلق على الكاتب ، فكرت ، بعد أن تكون تجربته قد انتهت ، أن يضطجع فى الظلام ويترك ذهنه يحتفى بحفل الزواج الداخلى هذا ويجب ألا ينظر أو يتسائل عما يدور هناك . بل عليه أن ينتف بتلات وردة ، أو يراقب البجعات تطفو فى هدوء على سطح النهر ، ورأيت مرة ثانية التيار الذي أخذ معه مركب الطالب الجامعى ، وأوراق الشجر الذابلة وأخذ التاكسى والرجل والمرأة . فكرت وأنا أراهما يلتقيان فى الناحية الأخرى من الشارع ورفلهم التيار بعيداً . فكرت وأنا أحاول أن أستمع إلى هدير حركة المرور فى لندن يجيئنى من بعيد إلى داخل الجدول المهول .

هنا إذن ، تكف مارى بيتون عن الحديث . لقد وصفت كيف وصلت إلى النتيجة – النتيجة التى بلا جديد – والتى تقول بأنه من الضرورى إذا أراد المرء كتابة الشعر أو القصص الروائى فلابد أن يكون له خمسمائة من الجنيهات فى السنة وغرفة لها مزلاج وقفل . وقد حاولت مارى بيتون أن تكشف عن الأفكار والانطباعات التى أدت بها إلى تلك النتيجة . وقد طلبت منكن أن تتبعوها وهى تجرى في اتجاه حارس الكلية ، وهى تأكل غداءها هنا ، وعشاؤها هناك ، وهى ترسم الصور للمتحف البريطانى ، تلتقط الكتب من على الرف ، تنظر من النافذة . وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه بكل هذا كنتن ولا شك تراقبن إخفاقاتها وعيوبها وتقررن مدى تأثير آرائها تلك . كنتن تعارضنها وتضفن ما شئتن من إضافات واستخلاصات بدت وجيهة لكن .كل ذلك فى محله تماماً ففى مثل تلك الحالات لا يمكن الحصول على الحقيقة إلا بوضع تنويعات مختلفة من الخطأ جنباً إلى جنب . وسوف أنهى الكلام وبشخصى أنا بالقول : أتوقع شيئين من النقد . هما شيئان واضحان إلى الحد الذى لا يمكن ألا يشار إليهما . قد تقلن إننا لم نسمع تعليقاً عن السمات المقارنة بين الجنسين حتى بوصفهم كتاباً . وكان ذلك عن عمد ، لأنه حتى لو كان الوقت قد حان لعقد مثل ذلك التقييم – وهو من الأهم بكثير فى هذه اللحظة من أن نعرف قدر الأموال التى كانت للنساء وعدد الحجرات التى كانت لهن – وحتى لو كان الوقت قد حان للتنظير فى موضوع كفاءة النساء فأنا لا أومن أن المواهب سواء كانت ذهنية أو ذات علاقة بالشخصية من الممكن أن تزن مثل السكر والزبدة ، ولا حتى فى كمبريدج ، حيث هم فى منتهى المهارة فى تسكين الناس فى طبقات وتثبيت الطواقى على رؤوسهم والحروف خلف أسمائهم . ولا أعتقد حتى إن قائمة السابقين (precedency) التى تجدنها فى روزنامة ويتاكر (Whitaker) تمثل نظاماً نهائيا فى التقييم أو أن هناك أى سبب عاقل يدعونا للإعتقاد أن حامل وسام باث ، سوف يسير إلى العشاء في نهاية الأمر وراء حامل لقب رئيس محققى قضايا الجنون* . كل ذلك التحرش لوضع جنس ضد جنس ، وصفات ضد صفات ؛ تلك الادعاءات بالأفضلية ، كل تلك الاتهامات بالدونية سيكون مكانه من الوجود البشرى هو مكان مرحلة المدرسة العامة حيث الفرق ، وحيث هو ضرورى لفرقة أن تفوز على أخرى ، وحيث هو من الأهمية البالغة أن يسير المرء إلى المنصة ويتسلم من يد الناظر نفسه إناء مزخرفاً للغاية . أما عندما يبدأ الناس فى النضج

---

* هناك بالفعل وظيفة يحمل صاحبها لقب Master in luney مهمته هى التحقيق فى قضايا الجنون .

فإنهم يكفون عن الاعتقاد فى " الفرق " وحتى فى النظار وفى الأوانى المزخرفة للغاية . وعلى كل ، فى حالة الكتب ، يصعب جداً أن نثبت بطاقة تقييم على نحو يضمن عدم سقوط تلك البطاقة . أو ليست عروض الكتب الحالية برهاناً مستمراً على مدى صعوبة الحكم على تلك الأمور ؟ ذلك الكتاب العظيم ، ذلك الكتاب الخالى من القيمة - هى أشياء تقال عن الكتاب نفسه . ولا يعنى كل من المدح أو الذم شيئا على الإطلاق ، لا ، فمهما كانت عملية التقييم وسيلة لطيفة فى إضاعة الوقت ، فإنها من أكثر الوظائف جدباً ، كما أن الانصياع لما تمليه تلك الأحكام لهو أكثر المواقف إهانة وخضوعاً .

وطالما أنك تكتب ما تود كتابته ، فهذا هو كل ما يهم . أما إذا كان يهم لحقب طويلة أو لأزمان أو لبضع ساعات ، ما من أحد يستطيع القول . ولكن أن تضحى بشعرة من رأس رؤيتك ، أو ظل من ظلال ألوانها ، انصياعاً لناظر ما يحمل أنية فضية فى يده أو لأستاذ يحمل عصا قياس فى كمه ، لهو أكثر الخيانات ضعة ، وتبدو التضحية بالمال أو العفاف التى كانت تعد أعظم المصائب الإنسانية مجرد عضة برغوث بالمقارنة .

ثم أعتقد أنكن قد تعترضن بأنى بالغت فى الاهتمام بالأمور المادية . حتى لو تسامحنا على أساس هامش الرمز العريض وأخذنا فى الاعتبار أن خمسمائة جنيه فى السنة ترمز إلى امتلاك سلطة التأمل وأن المزلاج والقفل على الباب يعنى سلطة المرء فى أن يفكر لنفسه . فقد تقلن أنه على الذهن أن يرقى فوق تلك الأشياء وأن الشعراء العظام كثيراً ما كانوا رجالاً فقراء . دعونى إذن أقتبس لكن من أستاذكن ، أستاذ الأدب الذى يعلم أكثر منى ما يجعل من الشاعر شاعراً . يكتب السير آرثر كويللر كاوتش [1] :

" ما أسماء الشعراء العظام فى المئة عام الماضية أو ما يناهزها ؟ كوليردج ، ووردزورث ، بيرون ، شيللى ، لاندور ، كيتس ، تنيسون ، براوننج - آرنولد ، موريس ، رزويتى ، سوينبيرن - فى مقدرونا أن نتوقف هنا . كلهم وباستثناء كيتس وبراوننج وروزيتى كانوا من خريجى الجامعة ، ومن الثلاثة هؤلاء ، كان كيتس الذى مات صغير السن وقطف فى ريعان شبابه ، هو الوحيد الذى لم يكن موسراً . قد يكون من القسوة أن نقولها ، حقيقة باردة : إن النظرية التى تدعى أن العبقرية الشعرية كالسفينة تتجاوب مع الريح ، وأنها تترعرع على قدم المساواة بين الغنى والفقير ليست صحيحة . فواقع الأمر

---

(١) فن الكتابة : بقلم آرثر كويللر كاوتش .

هو أن تسعة من هؤلاء الاثنى عشر الذين تضمهم قائمتنا من خريجى الجامعات : مما يعنى أنهم على نحو أو آخر وفروا لأنفسهم الوسائل التى سمحت لهم أن يتلقوا أفضل تعليم من الممكن أن تمنحه إنجلترا . ومن الحقائق التى لا ريب فيها أنه من ضمن الثلاثة الباقين كان براوننج موسراً ، وأتحداكم إن كان يقدر على كتابة "سول" أو " الخاتم والكتاب " لولا ذلك ! مثلما كان رسكن لا يقدر على كتابة "الرسامون المحدثون" لو لم يكن أبوه رجل أعمال ناجح . كان لروزيتى دخل خاص ثابت ؛ وإضافة إلى ذلك كان يرسم . لا يتبقى سوى كيتس الذى قتلته "تروبوس" صغيراً ، مثلما قتلت چون كلير فى مستشفى الأمراض العقلية ، وقتل وجيمس تومسون بفعل محلول الأفيون فى الكحول . تلك حقائق فظيعة ، ولكن علينا مواجهتها . من دواعى خزينا وعارنا كأمة ، أنه بسبب عيب فى نظامنا التكاملى ، فليس للشاعر الفقير لا فى يومنا هذا ولا كانت له ولمائة عام ، أدنى فرصة للتحقق والنجاح . صدقونى – فقد أمضيت الجزء الأكبر من عشر سنوات أراقب فيها ما يقرب على الثلاثمائة وعشرين مدرسة إلزامية – قد نتشدق بالديمقراطية ولكن فى واقع الأمر ، ليس لطفل فقير فى إنجلترا اليوم أمل أكبر من أمل ابن أى عبد هاش فى أثينا القديمة فى أن يتحرر ، ويقتطع لنفسه الحرية الفكرية التى تتولد فيها الكتابات العظيمة .

ها هو ذاك الأمر إذن ، الحرية الفكرية تتوقف على الأشياء المادية . والشعر يعتمد على الحرية الفكرية . النساء كن دائماً فقيرات ، لا لمدة مائتى عام فقط ولكن منذ بداية الخليقة ، وكن أقل حرية فكرية من أبناء العبيد فى أثينا . النساء إذن لم تكن لديهن أقل فرصة لكتابة الشعر . هذا هو السبب الذى جعلنى أؤكد كل هذا التأكيد على ضرورة النقود والغرفة الخاصة . ولكن الفضل يعود إلى جهد كل أولئك النسوة المغمورات فى الماضى . اللواتى أود لو أعرف عنهن أكثر . قد يرجع الفضل إلى حرب القرم التى جعلت فلورنس نايتجيل تخرج من صالونها ، وإلى الحرب الأوربية التى فتحت الأبواب للمرأة العادية بعدها بحوالى ستين عاماً . ولكن تلك الشرور فى طريقها إلى التحسن . وإلا ما كنتن هنا اليوم ، ولظلت فرصكن فى كسب خمسمائة جنيه فى السنة غير مضمونة ، كما أخشى ، ولكنها كانت ستكون ضئيلة جداً والأمل فيها ضعيف جداً ، لولا جهد هؤلاء النسوة .

ومع هذا قد تعترضن بالقول : لماذا تعلقين كل هذه الأهمية على كتابة النساء إذن ؟ فوفقاً لما تقولين تتطلب الكتابة جهدا عظيما وقد تؤدى ربما إلى قتل العمات ، وسوف تعطل المرء بالتأكيد عن ميعاد الغذاء ، وقد تتسبب فى أن يتخاصم المرء مع بعض الرجال

الممتازين ؟ أن دوافعى فى ذلك ، دعونى أعترف ، أنانية فى جزء منها . أحب القراءة مثلى مثل كل النساء الإنجليزيات ممن لم يتلقين تعليماً عالياً ، -أحب قراءة الكتب فى معظمها . وقد أصبح ما أتغذى عليه منها فى الآونة الأخيرة ممل ومتكرر . فكتب التاريخ تدور عن الحروب أكثر من أى شئ آخر ، وسير الرجال عن العظماء فقط ، أما الشعر فقد أبدى ميلاً نحو الجفاف والعقم - ولكنى كشفت بما يكفى عن معوقاتى كناقدة لفن القصص الحديث فلن أدخل فى ذلك الموضوع مرة ثانية . ولذا فأنا أطلب إليكن أن تكتبن فى كل المجالات ، وألا تحجمن عن الكتابة فى أى موضوع مهما كان تافهاً أو واسعاً . وبشكل أو آخر أتمنى أن تمتلكن ما يكفى من المال كى ترتحلن وكى تشترين وقتا للفراغ تتأملن فيه مستقبل العالم أو ماضيه ، وإن تحلمن وأنتن تقرأن وتتسكعن على نواصى الشوارع وتتركن سنارات أفكاركن تغوص عميقاً فى مجرى النهر . وذلك لأنى لا أحصركن فى أى شكل من الأشكال فى مجال الكتابة القصصية . ولو أردتن إرضائى وهناك الآلاف مثلى - لكتبتن كتباً فى أدب الرحلات والمغامرات ، ولبحثتن فى شتى المجالات وكتبتن فى التاريخ والسيرة والنقد والفلسفة والعلوم . وسوف يكون فى ذلك إفادة كبيرة للفن والقصص ؛ ذلك لأنه من طبع الكتب أن تؤثر فى بعضها البعض . سوف يتحسن فن القصص عندما يتقارب ويتلاصق بالشعر والفلسفة . إضافة إلى ذلك عندما تتأمل شخصيات من الماضى ، مثل ساڤو أو الليدى موراسكى أو إميلي برونتى ستجدن أنها كانت وريثة تراث ما ، بقدر ما كانت مبتكرة وأنها ما جاءت إلى الوجود إلا لأنه أصبح من عادة النساء أن يكتبن على نحو طبيعى ؛ وبذا فإن ما تكتبن ، حتى لو كان فى النهاية لا يشكل إلا إرهاصاً لكتاب الشعر فهو لا يقدر بثمن .

لكنى ، عندما أتطلع إلى مسوداتى هذه وأتفقد حبل أفكارى وأنا أكتبها ، أجد أن دوافعى لم تكن أنانية محضة . إن ما يتخلل هذه التعليقات والاستطرادات هو الاعتقاد - أم تراه الغريزة ؟ - بأن الكتب الجيدة مرغوب فيها ، وأن الكتاب الجيدين ، حتى لو أظهروا نوعًا من أنواع إفساد الخلق ، فهم فى النهاية بشر طيبون . ولذا ، فإنى عندما أطلب منكن كتابة المزيد من الكتب و أستحثكن على ما فيه خيركن وخير العالم بأسره فأنا - فى الحقيقة - لا أعلم مسوغات ، ولا أعرف كيف أبرر هذا الإعتقاد أو تلك الغريزة ؟ لأن الكلام الفلسفى - وبخاصة لو أن المرء لم يتلق تعليماً فى الجامعة - لابد أن يخذلنا ويخدعنا . ماذا نعنى عندما نقول الواقع ؟ أنها تبدو كلمة متعرجة لا تستقيم ، لايركن إليها - نجدها تارة فى طريق مترب ، وتارة فى نتفة ورق من صحيفة ألقيت فى الشارع ، أو فى

نرجسة برية فى الشمس . إنها تضئ مجموعة من الغرف أو تمهر قولا عابراً . إنها تغمرنا ونحن سائرين تحت النجوم وتجعل العالم الساكن أكثر " حقيقة " عن عالم الكلام – ثم نجدها فى أتوبيس وسط ضجة بيكاديللى . أحياناً أيضاً ، يبدو أنها تقبع فى أشكال بعيدة لا نستطيع تمييز كنهها عن بعد ،هى ما يتبقى من اليوم عندما يخلع جلده ويلقى به على السور النباتى فى نهاية الحديقة ؛ هى ما يتبقى من الماضى ومن كل من أحببناهم أو كرهناهم . واعتقادى أن الكتاب لهم فرصة أكبر من الآخرين للعيش فى الحقيقة .

وواجب الكاتب هو العثور عليها وتجميعها وإيصالها لنا . هذا على الأقل ما أستشفه من قراءة "لير" أو "إيما" أو " البحث عن الزمن المفقود" لأن قراءة تلك الكتب تقوم بصياغة عجيبة للحواس ؛ والمرء يرى بعدها بحدة أشد ؛ ويبدو العالم عارياً عما يغطيه ويكتسب حياة فائقة عن الحد . هؤلاء هم البشر الذى يحسدون على عدائهم لما هو " غير حقيقى " ؛ وهم ذواتهم من يستحقون الشفقة ؛ فهم من يضربون على رؤوسهم بسبب الشئ نفسه دون أن يدروا أو يهتموا . حتى إننى عندما أطلب منكن أن تكسبن النقود وأن تكون لكن غرفة تخصكن ، فإنى أطلب منكن أن تعشن في حضور الحقيقة ، حياة نشطة قوية ، فيما يبدو ، سواء كان فى استطاعة المرء نقلها والإفضاء بها أم لا . وهنا كنت أتوقف لولا أن العرف يقضى أن كل خطاب لابد وأن ينتهى " بفذلكة" * أما الفذلكة التى نتوجه بها فى نهاية خطبة ما للنساء ، فلابد أن تكون – وأظنكن ستوافقننى – ذات قدرة على الإعلاء والإزهاء ، مشرفة رفيعة بشكل خاص . ويكون من واجبى أن أجعلكن تتذكرن مسئولياتكن ، وأن تكن أكثر رفعة وروحانية ؛ وأن أذكركن بكل ما يتوقف عليكن من أمور ، وكم تستطعن التأثير فى المستقبل . ولكن مثل تلك التوصيات من الممكن ، وباطمئنان أن نتركها للجنس الآخر الذى سوف يقوم رجاله ، وقد قاموا بالفعل ، بصياغتها على نحو أكثر بلاغة وإحاطة مما أستطيع أنا . عندما أفتش فى ذهنى فإنى لا أجد مشاعر نبيلة عن الرفقة والمساواة والتأثير فى العالم لأغراض أسمى . وأجد نفسى أقول باقتضاب، ودون شاعرية كبيرة إن المهم أن يكون الإنسان نفسه وأن ذلك أهم من أى شئ آخر . لا تحلمن بالتأثير على الآخرين ، أقول لكن – لو كنت أعرف كيف أعطى مثل تلك الجملة رنيناً عالياً مشرفا ورفيعاً – فكرن في الأشياء كما هى . مرة أخرى ، أتذكر ما تذكرنى به الصحف والروايات التى قرأتها قراءة سطحية ، أنه عندما تحدث امرأة جمهوراً من النساء عليها أن تحتفظ

* فذلكة = آخر الخطبة وفيها إجمالى لنقط البحث التى دارت فى الكلام وهى المرادف التام لكلمة Peroration فى الإنجليزية .

لهن بشئ كريه ومنفر فى النهاية . إن النساء فى منتهى القسوة على النساء . النساء لا يحببن النساء – ولكن ألم تسأمن تلك المقولة حتى الموت ؟ أؤكد لكن أنى مللتها تماماً . دعونا نتفق إذن ، أنه عندما تقرأ امرأة على نساء ورقة أو محاضرة فعليها أن تنهيها بشئ منفر وكريه على نحو خاص . ولكن كيف يكون ذلك ؟ ما الذى أستطيع التفكير فيه . الواقع هو أنى كثيراً ما أحب النساء . أحب اكتمالهن ، ومجهوليتهن ، وعدم تقليديتهن – أحب ولكن يجب ألا أستمر هكذا . ذلك الدولاب هناك – قلتن أن به فوطًا نظيفة للسفرة فقط ، لكن ما الذى يحدث لو أن السير ارتشبالد بودكن كان مختبئاً بينها ؟ دعونى إذن أتبنى نبرة أكثر صرامة . هل نقلت لكُن فى كلامى السابق تحذيرات ونصائح جنس الرجال بما فيه الكفاية ؟

لقد نقلت لكن رأى المستر أوسكار براوننج السيئ فيكُن وأشرت إلى ما اعتقده نابليون فيكُن ذات يوم ، وهو ذاته ما يعتقده موسوليني الآن – لو أن فيكن من تصميم على كتابة القصص – ألم أنقل لكن حرفياً كلام الناقد الذى نصحكن أن تعترفن بشجاعة بحدود جنسكن؟ وأشرت إلي الأستاذ وأبرزت كلامه الذى يقول فيه إن النساء أدنى ذهنياً وأخلاقياً وجسدياً من الرجال ؟ وأسلمتكن كل ما صادفنى دون البحث عنه ، هناك تحذير أخير – من المستر چون لانجلون ديفيز [1] المستر جون لانجلون ديفيز يحذر النساء بقوله " عندما نكف عن الرغبة فى إنجاب الأطفال ، فلن تكون بنا حاجة إلى النساء " ؟ أرجو أن تأخذن ملاحظة بذلك الكلام . كيف أستطيع تشجيعكن أكثر فى المضى فى الحياة . أيتها الشابات ، وأرجوكن الانتباه ، فقد بدأت " الفذلكة " : إنكن فى رأيى جاهلات جهلاً يجلب العار . فأنتن لم تقمن بكشف هام ، أنتن لم تهززن أركان دولة أو تهدمن إمبراطورية ولم تقدن جيشاً فى حرب لم تكتبن مسرحيات شكسبير ولم تقدموا نعم الحضارة إلى جنس همجى . ما عذركن فى ذلك ؟ ليس أسهل من أن تقلن وأنتن تشرن إلى الشوارع والميادين والغابات ، التى تضج بالسكان السود والبيض والذين فى لون الشوكولاتة : كلهم مشغولون بالتجارة والمهام العملية ، وممارسة الحب ، وأنكن كنتن مشغولات على نحو آخر . وأن تلك البحار وتلك الصحارى ما كان ليخوض عبابها أحد ولا كان ليزرعها أحد لولا وجودنا . لقد حملنا وربينا وغسلنا وعلمنا ، وحتى آخر رأس الستة أو السبعة ألف وستة مائة وثلاثة وعشرين مليون إنشان ، هم وفقاً للاحصاءات على قيد الحياة اليوم ، وهذا يأخذ من الوقت

(١) موجز تاريخ النساء A short History of women

الكثير حتى لو تسنى للمرء بعض المساعدة. إن فى قولكن هذا بعض الحقيقة – ولن أنكرها . ولكن فى الوقت نفسه اسمحوا لى أن أذكركن أن إنجلترا بها على الأقل كليتان للنساء منذ عام ١٨٦٦ وأنه بعد عام ١٨٨٠ سمح القانون للمرأة المتزوجة أن تحتفظ بأملاكها ؛ وأنه فى عام ١٩١٩ – أى منذ تسعة سنوات كاملة – أعطيت المرأة حق التصويت والانتخاب ؟ هل لى أن أذكركن أن معظم المهن مفتوحة لكُن منذ ما يقرب على العشرة سنوات ؟ عندما تتأملن تلك المزايا العظيمة وتتأملن عدد السنين التى أصبح لكُن فيها حق التمتع بها ، ، وأن هناك الآن حالياً ما يقرب من اثنتى ألف امرأة فى مقدورها كسب أكثر من خمسمائة من الجنيهات فى العام بشكل أو آخر ، فلابد أنكُن ستوافقننى أن عذر إنعدام الفرص ، وعدم توفر التدريب والتشجيع ووقت الفراغ والمال أصبح عذراً مرفوضاً ، إضافة إلى ذلك ، ينبئنا الاقتصاديون أن مسز سيتون لها من الأطفال ما هو أكثر مما يجب وأنه عليكن بالطبع أن تواصلن إنجاب الأطفال ولكن ، (هكذا يقولون) إنجاب اثنين أو ثلاثة لا عشرة أو اثنى عشر . وبذا وبعد أن يتوفر لكن بعض الوقت وبعض الاطلاع وتثقيف الدماغ وصقله – فقد مللتن النوع الآخر [من التثقيف] – ويبعث بكن إلى الجامعة بعض الوقت ، (تخليصكن مما تعلمتن) فلابد من الأكيد أنكن سوف تبدأن مرحلة جديدة من حياتكن العملية المجهولة الشاقة. وسوف يقف ألف قلم على أهبة الاستعداد ليقترح ما يتوجب عليكن عمله ومدى التأثير الذى سوف تؤثرونه . أما اقتراحى فهو خيالى بعض الشئ – على أن اعترف ؛ والأفضل أن أصيغه صياغة قصصية .

قلت خلال تلك الورقة إن شكسبير كانت له أخت ؛ ولكن لا تبحثن عنها فى السيرة التى كتبها السيد سيدنى لى لحياة شكسبير . المسكينة ماتت صغيرة ، ولم تكتب حرفاً . وقبرها فى مفترق الطرق عند موقف الأتوبيس على الجانب الآخر من إليفانت وكاستل . إن تقديرى وإيمانى هو أن تلك الشاعرة التى لم تكتب حرفاً ودفنت فى مفترق الطرق لاتزال تحيا ؛ إنها تحيا فيكن ، وفى نساء أخريات كثيرات لسن معنا الليلة ، لأنهن الآن يغسلن الأطباق و ويحملن الأطفال ويربينهم . ولكنها تحيا ؛ لأن الشعراء العظام لا يموتون وحضورهم يستمر ، وليسوا فى حاجة إلا إلى فرصة للسير وسطنا فى شحمهم ولحمهم . وتلك الفرصة كما يترائى لى فى طريقها إلى التحقق من خلال القوة التى كبتن أن تمتلكنها . وذلك لأنى أعتقد أننا لو عشنا قرناً آخر وما يناهز القرن – أنا أتحدث عن الحياة المشتركة الجماعية التى هى الحياة الحقيقية وليس عن الحيوات المتفرقة التى نحياها بوصفنا أفرادا – لو عشنا قرناً وأصبح لنا خمسمائة من الجنيهات فى السنة لكل منا ، وغرفة لكل منا ،

ولو أصبحت لنا عادة الحرية والشجاعة أن نقول بالضبط ما يدور في خلدنا ؛ ولو هربنا من غرفة الجلوس المشتركة (لحد ما) ورأينا البشر لا فى علاقاتهم بعضهم البعض ولكن فى علاقتهم والواقع ؛ وكذلك علاقتهم والسماء والأشجار أو كائن ما كان أو أنفسهم ؛ لو نظرنا أبعد من غول ميلتون(*) لأنه لا يحق لأحد أن يغلق علينا المنظر من النافذة ؛ ولو واجهنا الحقيقة أننا نمضي وحدنا بلا ذراع نستند إليه وأن علاقتنا هى عالم الحقيقة وليس عالم الرجال والنساء ، فسوف تحين الفرصة وتفيق الشاعرة الميتة التى كانت أختاً لـ شكسبير وترتدى جسدا ، كثيراً ما تركته . وسوف تولد ، تستقى الحياة من حيوات المجهولات اللواتى جئن قبلها ، كما فعل أخوها من قبل ، وسوف تولد . أما أن تجئ دون مثل ذلك التحضير والتهيئة دون جهد من ناحيتنا ، دون إصرارنا أن تجد ظروفاً هيئناها لها تمكنها من الحياة وكتابة الشعر ، فستكون حياتها مستحيلة . وليس لنا أن نتوقع أن تحيا ، ولكنى أشهد وأسجل أنها سوف تجئ لو عملنا من أجلها ، وإن مثل ذلك العمل ، حتى لو كان تحت ظروف الفقر والتهميش ، فإنه عمل يستحق أن نبذله .

---

* الاشارة فى الغالب إلى الفردوس المفقود لجون ميلتون .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عبد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المفترى	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأطلكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . آلنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهورم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحيرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا الفجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : د. أشرف على دعدور

١٠٧ - صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
الأدب المقارن
الفجر الكاذب
الشعر الأمريكي المعاصر
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقي الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقي
الإسكندرية : تاريخ ودليل
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
بارسيفال
اثنتا عشرة مسرحية يونانية

مصر القديمة التاريخ الاجتماعي
الخوف من المرايا
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
صاحبة اللوكاندة
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات في بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون في الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
مختارات من المسرح الإسباني المعاصر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٠٥٠ / ١٩٩٩

الترقيم الدولي (I. S. B. N. 977 - 305 - 159 - 5)